الأعلام من الفلاسفة

تأليف
الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي
وكيل كلية الآداب - جامعة المنصورة



جون لوك

من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث

دار الكتب العلمية





جون لوك

من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث

تأليف

الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي

وكيل كلية الآداب - جامعة المنصورة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة المؤلف

بسم اللَّه الرَّحمَن الرَّحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول الله ﷺ. أقول بـإذن الله تعالى إن العوامل التي دفعتني إلى الاهتمام بفلسفة جون لوك: منها أنه كان أول من وضع مشكلة المعرفة الإنسانية في تاريخ الفكـر الفلسفي مـوضع البحث المستقـل المنتظم في كتـابه «مقـالة في العقـل البشري» الذي يعتبر بمثابة أول محاولة جـدية في هـذا الصدد. وأنـه كان بمثـابة مـرحلة انتقال ضروريـة في تاريـخ الفكر الفلسفي في القـرن السابـع عشر تترجم لروح العصر ـ وهي الـروح العلمية، في مختلف الميـادين، سياسية كانت أو فلسفية. وذلك لاستيعابه للاتجاهات التجريبية عنـد فـرنسيس بيكـون، ونتـائـج العلوم الـطبيعيـة عنـد كـل من بـويـل، جاليليو، نيوتن. وتقديمها في فلسفته التجريبية النقدية تعبيـراً تمهيديّـاً تـطوريّاً لفلسفـة جـديـدة اتضحت معـالمهـا عنـد هيـوم رسـل ووليم جيمس.

هذا بالإضافة إلى ما امتازت به فلسفته من تحليل للفكر وعملياته تحليلاً دقيقاً. وإلى ما قدمه لمعاصريه من دراسات هامة وقيمة، خاصة في التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية وتحليل فكرة الجوهر وتحليل اللغة... الخ.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أقوم بدراسة تحليلية لفلسفة لوك لإظهار ما تقوم عليه من أسس ومبادىء، وقد بذلت جهداً واسعاً، يعلم الله ذلك، ما احتاجت إليه هذه الصفحات من جهد مضنٍ، حتى أبينّ للقاريء وطالب الفلسفة هذه المبادىء والأسس، وقد تتبعت في هذه الأسس والمبادىء، طريقة جون لوك الفلسفية، لأوضح كيف أقام عليها لوك نظريته في المعرفة. معتمداً في ذلك على مؤلفاته نفسها.

وكذا الخطابات المتبادلة بينه وبين أصدقائه أمثال كلارك، كولينز، وستيلنج فليت، التي كانت تتناول كثيراً من المشكلات الفلسفية بالتحليل أو الردّ والدفاع.

كما حاولت في هذا الكتاب أن أكتب بطريقة نقدية مقارنة، وحاولت فيه إبراز الملامح الأساسية للاتجاه التجريبي بصفة عامة، وفي فلسفة لوك بصفة خاصة. ومدى أصالة هذا الاتجاه عنده. وجعلت نقدي لفلسفته في ضوء هذا الاتجاه، مبيناً كيف أنه ينتهي أحياناً إلى بعض النتائج التي تختلف عن البداية التجريبية التي بدأ بها مناقشاً أسباب ذلك، مثل تأثره ببعض الفلسفات العقلية والتراث الفكري المدرسي الذي تلقاه في أكسفورد. وقد حاولت في هذا الكتاب أن أبينّ رأي لوك بقدر الإمكان، وقد لجأت إلى المقارنة كلما سمح المجال بذلك.

أسأل الله العظيم أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه يوم لا ينفع مال ولا بنون. وأصلي وأسلم على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه الأستاذ الدكتور ـ فاروق محمود عبد المعطي
وكيل كلية الآداب جامعة المنصورة

١ ـ حياة الفيلسوف جون لوك:

ولد جون لوك في رينجتون بمقاطعة سومرست في ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢ بانجلترا أثناء حكم الملك شارل الأول وكان أبوه محامياً من جماعة البيوريتان (المتطهرين) اشترك في صفوف البرلمان حين اندلعت الحرب الأهلية[١] ولم يكن الابن الصغير جون لوك يتجاوز العاشرة من عمره فكانت هذه البيئة المكافحة التي نشأ فيها لوك من أكبر العوامل التي أدت إلى تفتح ذهنه على بعض الأفكار السياسية السائدة في ذلك الوقت وتوجيه نظره إلى الاشتغال بالسياسة فيما بعد بحيث جعلت منه بعد ذلك فيلسوف الحرية لا في انجلترا وحدها بل في أوربا كذلك.

وقضى لوك فترة طفولته في سومرست حتى بلغ الرابعة عشرة ثم أرسل إلى مدرسة وستمنستر في سنة ١٦٤٦ واستمر بها حتى التحق بجامعة أكسفورد في سنة ١٦٥٢[٢].

(١) قامت الحرب الأهلية في إنجلترا بين أتباع الملك شارل الأول وأتباع البرلمان.
وانتهت بفوز أوليفر كرومويل وإعدام الملك وقيام الجمهورية عام ١٦٥٣.

(٢) O'connor. D. J. Jo h n locke. P IH. Lonon. 1952 (Apenguin No. A 267)

ومما هو جدير بالذكر أن لوك لم يتأثر كثيراً بالمناهج التي كان يدرسها. في وستمنستر والتي كانت تتلخص في دراسة القواعد والترجمة المتعلقة باللغتين اليونانية واللاتينية[1] كما أنه لم يحب ذلك النظام القاسي الذي كان يسود المدارس الانجليزية في ذلك الوقت. وراح ينتقده ويحاول أن يضع أسساً جديدة لتربية تقوم على شيء من الحرية والمرونة وقد وصف لوك تلك الطريقة القديمة ومقترحاته لتربية أخرى جديدة في كتابه (أفكار عن التربية) عام ١٦٩٣[2].

كما خاب ظنه كذلك حين التحق بجامعة أكسفورد لدراسة الفلسفة إذ وجدها خليطاً من فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الأرسطية ممتزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة ومع ذلك فقد استمر في دراسته للفلسفة ولم يكن مرجع اهتمامه بها إلى دراسته الأكاديمية في أكسفورد إنما إلى قراءاته الشخصية وخاصة لديكارت الذي وجد في كتاباته الواضحة وأفكاره السهلة الدقيقة نوعاً من الثورة على تلك الفلسفة المدرسية القديمة التي لم تكن لتشبع العقل أو ترضية والتي جعلته يوقن أن الفلسفة يمكن أن تكون شيئاً أكثر من مجرد التحدث بألفاظ ضخمة براقة أو عبارات صعبة لا يمكن فهمها[3].

واستمر في دراسته الفلسفية في أكسفورد مع قراءاته الخاصة مدة أربع سنوات حصل بعدها على درجة البكالوريوس B.A عام ١٦٥٦ ثم على درجة الماجستير. M.A في الفلسفة بعدها بعامين ١٦٥٨ ثم

---

(١) Sterling P. lamprecht, locke- selections, introduction p. VII (Seribners impression) New york, 1956

(٢) Aaron, R. I, John Loke, Oxforduniversity Press, London 1937, P.3

(٣) Oconnor, D. J. John Loke P.75

عين عام ١٦٦٠ محاضراً في الفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق في مدرسة الكنيسة بأكسفورد مع استمراره في متابعة دراسته للمنطق وللميتافيزيقا متزوداً بدراسة التاريخ والفلك والطبيعة وبعض اللغات(١).

وفي تلك الأثناء اجتذبت العلوم الطبيعة انتباهه واهتمامه ويبدو ذلك الاهتمام من صداقته لأكبر علماء عصره مثل اسحق نيوتن وبويل.

كما بذل لوك مجهوداً كبيراً في دراسة الطب واستطاع أن يحصل على درجة علمية BM من أكسفورد عام ١٦٧٥ تؤهله لممارسة الطب عملياً وبدأ يمارسه فعلاً من حين لآخر إلا أنه لم يشتغل به مهنة أساسية ولا بطريقة منتظمة أو دائمة(٢) ومما يروى عنه أنه أنقذ حياة صديقه لورد شافتسبري بواسطة عملية جراحية أجراها له(٣) وكان هدفه من دراسة الطب هو الرغبة في تطبيق الطريقة التي كان يستخدمها كثير من العلماء أمثال جاليليو ونيوتن وبويل في العلوم الطبيعية على الأمراض التي تصيب الإنسان(٤) إلا أن لوك استطاع أن يتبين اتجاهه الحقيقي الذي لم يكن الدين ولا الطب ولا السياسة بل الفلسفة. هذا عن حياة لوك الدراسية والعلمية. أما عن حياته العملية فكانت خصبة فيها كثير من النشاط والتغيير، حياة ديناميكية فعالة لم يكتف فيها بتعلم الفلسفة. ولا بدراسة الطب ومزاولته من

---

(١) Aaron. R.I; John Locke, P.5
(٢) O'connor, Dr.J; John Locke, P.15
(٣) Sterling P, lamprecht, Locke, 'Selections, P.XI
(٤) Aaron, R. I. John Locke, P.6.

حين لآخر. بل كانت له في الميادين السياسية والاقتصادية والتربوية جهود واضحة تبلورت في شكل مؤلفات قيمة تشرح رأيه وتعبر عن وجهة نظره الإصلاحية فيما يتعلق بمشكلاتها.

ويرجع سبب اهتمام لوك بالسياسة والتنظيم الاجتماعي إلى ظروف حياته وبيئته التي نشأ فيها. ثم كانت الفرصة التي أتيحت له بعد ذلك للإشتغال بالسياسة عملياً حين أرسل سكرتيراً لبعثة دبلوماسية برئاسة سيد والتر فين عام ١٦٦٥ إلى حاكم براندنبرج يعرضون عليه التحالف معهم أو الوقوف على الحياد في حرب هولنده فابتدأ وعيه يتفتح على أفكار جديدة لم تكن له بها خبرة من قبل[١] إلا أن التأثير المباشر الذي أثر في لوك وجعله يشعر بالحاجة إلى تكوين أفكار واضحة واتجاهات محددة ومفهومات أساسية لتنظيم اجتماعي وسياسي جديد يقوم على الحرية ويعود ذلك إلى صحبته وعمله مع لورد أشلي الذي عرف بعد ذلك باسم لورد شافتسبري - والذي كانت له مساهمة كبيرة في ميادين السياسة والأخلاق - وكان يعتبر من أكثر الأشخاص تأثيراً في الحياة السياسية في إنجلترا أثناء حكم شارل الثاني وذلك لكراهيته العميقة للاستبداد بكل أنواعه سياسياً كان أم دينياً وقد انتقلت كراهيته تلك بدورها إلى صديقه لوك الذي أصبح بمثابة المدافع عن الحريات في المجتمع الإنجليزي[٢] إلا أن الدفاع عن الحرية لم يكن أمراً هيناً في ذلك العصر إذ لم تكن مناصرة الحرية إذ ذاك تفسر إلا بمعنى الإباحية في السياسة والدين وكان حتماً على أشياعها أن يلاقوا أحد اثنين كلاهما مرّ فإما النفي أو التشريد وإما

---

(١) O'connor, D. J. John Locke, P.16.

(٢) المرجع السابق نفس المصدر ص ١٧.

القتل ولكن لوك استطاع أن يظل في انجلترا زمناً طويـلاً رغم مبادئـه الحرة بفضل حماية ومساعدة صديقه لورد شافتسـبري . ثم سافـر لوك إلى فرنسا عام ١٦٧٥ حين بدأت صحته تسوء وظل يتردد بين مونبيليه وبـاريس وبقية أجـزاء فرنسـاـ مدة أربـع سنـوات ـ قـابـل كثيـراً من الأصدقاء والفلاسفة[١] مثل مالبرانش وبيرنيه أحد تـلامذة الفيلسـوف الفرنسي جسندي[٢] وتـوماس هـيربرت الـذي أصبح فيـها بعد إيـرل أوف بمبروك والذي أهدى إليه كتابه «مقالة في العقل البشري»[٣].

ثم رجـع إلى إنجلترا وظل يمـارس نشـاطـه الفكـري والسيـاسي بمصاحبة صديقه لـورد شافتسـبري الذي قبض عليـه وحوكم بتهمـة الخيـانة العـظمى ففر هـارباً إلى هـولندة حيث مـات هنـاك. في تلك الأثناء أحس لوك بـأن موقفـه في إنجلترا أصبح مهـدداً لأن الشخص الذي كان يعتمد على مساعدته وحمايتـه اتهم بالخيـانة ومـات فآثـر أن يتبع نفس الطريق الذي سار فيها صديقه من قبل وهرب إلى هولنـدة عام ١٦٨٣ التي كان يسودها في ذلك الوقت نوع من التسامح والحرية بـالنسبة لبقيـة أجزاء أوربـا، إلا أن هـذا الهـرب لم يحقق لـه الهـدوء والاستقـرار الـذي كـان ينشـده خـاصـة بعـد أن وضعت الحكـومـة الإنجليـزية إسمـه في القـائمـة السـوداء[٤] وطلبت تسليمـه أو طـرده فـاضـطر إلى التسـتر والتخفي تحت اسم مستعـار هــو دكتـور فـان درلندن[٥] Dr. Van Der Linden . ولم يستمر هـذا التخفي طويـلاً لأن

---

(١) Leslie Paul, the English Philosophers, P. 115 (Faber editon, London. 1952).

(٢) O'connor, D J; John Locke, P.17.

(٣) Aaron, R.I; John Locke, P.18.

(٤) Sterling P. Lamprecht, Locke, Selections, P.XXII.

(٥) O'connor, D.J, John Locke, P.16.

أصدقاءه في إنجلترا بذلوا أقصى جهدهم لمساعـدته وطلبـوا عفو الملك جيمس الثـاني عنه الـذي وافق فعلاً، إلا أن لـوك رفض هـذا العفـو وأرسل إلى صديقـه إيرل أوف بمبروك مبيناً لـه أسباب ذلـك الرفض قائلاً أن العفو لا يصدر إلا عن جريمة بينما هو لم يرتكب جريمـة ، لأن الدفاع عن الحـرية لا يعتـبر كذلـك[1] وفضل البقـاء في هولنـدة حتى يتمكن كذلك من مواصلة كتابـاته التي لم يكن قـد ظهر منهـا شيء له أهمية كبيرة حتى ذلـك الوقت ١٦٨٦ الـذي كان قـد بلغ فيه الـرابعة والخمسـين من عمره[2] وفي تلك الأثنـاء ظهـرت بـوادر الثـورة ضـد الملك جيمس الثاني آخر ملوك أسرة استيوارت الاستبدادية الذي كان مكـروهاً من الشعب لإعـلانه مـذهبه الكـاثوليكي صراحـة ولتمسكه بنـظرية حق الملوك المقـدس في الحكم. فبدأ لـوك نشاطـه وانتقـل إلى روتـردام حيث كان يقيم وليم أورانـج ، الذي أبحـر عـام ١٦٨٨ إلى إنجلترا واعتلى هو وزوجته العرش الـذي تركـه جيمس الثاني وهـرب إلى فرنسا[3] ونجحت الثورة الإنجليزية وتحقق حلم جون لـوك بزوال الطغيان وأصبح الطريق أمامه ممهداً للعودة إلى الوطن فرجع إليه وهو آسف لفراقه هولندة وأصدقائه فيها[4].

وبفوز الأحرار في إنجلترا بالنصر والغلبة وبـاعتلاء وليم أورانـج الحكم الـذي عرف بعـد ذلك بـاسم وليم الثالث أصبـح للوك مركـز مرموقاً في إنجلترا باعتباره فيلسوف الثـورة والأب الروحي لهـا والمبشر

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه

(٤) المرجع السابق الموضع نفسه

بمبادئها، وقد عرض عليه الملك وليم أن يكون سفيراً لإنجلترا لدى حاكم براند نبرج أو في بلاط فينا ولكنه اعتذر عن عدم قبوله أحد المنصبين لسوء حالته الصحية[1]. وآثر قبول منصب آخر هو مستشار التجارة والمستعمرات في إنجلترا حتى عام ١٦٩١ حين اعتزل الخدمة وآوى إلى منزل أصدقائه أسرة ماشام[2] ثم عاد فقبل مرة أخرى عام ١٦٩٦ نفس المنصب السابق لمدة أربع سنوات اضطر بعدها حين ساءت صحته إلى الاعتكاف في الريف الهادىء في صحبة آل ماشام حتى توفي في ٢٨ أكتوبر عام ١٧٠٤[3]. كانت هذه حياة لوك الفيلسوف السياسي الثائر، أما عن لوك الإنسان فكان شخصاً مخلصاً لمبادئه مستمسكاً بها مدافعاً عنها عاملاً على تنفيذها في شيء من التصميم الواعي وفي شيء من الحزم والتعقل متحلياً بقيم خلقية عالية ومفهومات إنسانية واسعة على درجة كبيرة من الذكاء الذي ساعده على تفهم مجتمعه وألوان الاستبداد والضغوط الموجودة فيه وعلى معرفة الاتجاهات التطورية الجديدة في المجتمع وبلورة هذه الإتجاهات في مؤلفاته المتعددة وعلى وضع مقترحات سريعة فعالة لمعالجة تلك الأوضاع ومحاولة تغييرها بشيء من السهولة والمرونة. وكان لوك شغوفاً بالقراءة لدرجة أن البعض يميل إلى الإعتقاد بأنه كان من أكثر رجال عصره ثقافة وعلماً[4] إلا أنه كان مع ذلك متواضعاً لا

---

(١) Sorley. W.R, A History of Englisn Philosophy, P.107, (cambridge University Press second editoin, 1937).

(٢) هم فرانسيس ماشام وزوجته وأمادين كودورث ـ ابنة الفيلسوف رالف كودورث أحد أفلاطوني كمبردج.

(٣) Aaron, R.I; John Locke, P.40.

(٤) المرجع السابق صفحة ٤٩.

يحب الظهور ويكره تماماً من يتشدق بالفلسفة بدون فهم أو من يجد لـذة في انتقـاء المـذاهب الغـريبـة أو الغـامضـة بغيـة اجتـذاب انتبـاه الناس[1].

كما كانت للوك شخصية قويـة صهرتهـا خبراتـه وتجاربـه المتعددة بحيث أثرت فيمن حوله من الأفراد والأصدقاء حتى لقد شهد له جميع معـاصريه بـالإخلاص للحق والتفـاني في سبيل الحـريـة. كـما عـرف بالإعتدال والحكمة.

وليس أدل عـلى حبه للحق وإخـلاصه لـه من رسـائله التي كـان يرسلها إلى أصدقائه فذكر مثلاً في خـطاب له إلى مـولينو أن مـا جعل من كتاباتـه ومؤلفاتـه شيئاً ذا قيمـة هو أنـه لم يكتب لأي غرض آخـر سوى الحق، كما ذكر في خطاب لهإلى كولينز أن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يفخر به هو أنه يحب الحق بكل إخـلاص ويبحث عنه دائـماً سواء أكان ذلك يسر البعض أو لا يسرهم[2].

إلا أن هذا لا يدل على أنه كـان بعيداً عن النـاس غير مهتم بهم أو مبـال بمشاعـرهم لأنه كـان عـلى العكس يحب النـاس إلا أن حبـه للحق كان أكثر ويرجع ذلك إلى أنه كان بطبيعته متقد العـاطفة ولكن بـلا انـطلاق لأنـه تعلم كـما يـروي بيـيركـوست كيف يسيـطر عــلى إحساساته ويضبط عواطفه[3].

وتتجلى هذه الإحساسات مع أصدقائه من الأطفال والبالغين على

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.
(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.
(٣) المرجع السابق صفحة ٥٠.

حد سواء فالأطفال كانوا يعتبرونه بمثابة الوالد الثالث لهم (أي بعد الوالدين)[1] أما أصدقاؤه الكبار فكانوا يعتبرون بصداقته وأكثر ما يظهر تقدير لوك لعاطفة الصداقة أن أغلب مؤلفاته كانت إما بوحي من مناقشاته مع الأصدقاء أو مهداة إليهم فكتابه «مقالة في العقل البشري» كان نتيجة لمناقشاته لبعض الزملاء في إحدى الأمسيات وخطابه عن التسامح كان مرسلاً إلى صديقه ليمبرخ. وكتابه «أفكار عن التربية» كان في حقيقته خطابات مرسلة إلى صديقه كلارك ـ وكما يروي البعض أن نقده للكتاب المقدس كان نتيجة لمناقشاته المتعددة مع السيدة ماشام[2].

وكان يغلب عليه الحرص والتسامح والصبر والهدوء ويعتقد إلى حدٍ كبير يصل إلى «درجة» الإيمان بالعقل الإنساني ويكره كراهية متأصلة كل استبداد في أي صورة من صوره متشيعاً مناصراً للحرية في كل ميادينها وبكل أشكالها[3].

٢ ـ أهمية جون لوك في حركة التنوير:

إذا كان مؤرخو الفلسفة يعتبرون كتاب «مقالة في العقل البشري» للوك بمثابة أول محاولة منظمة لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الإنساني وعملياته وطبيعته فلنا الحق كذلك في القول بأن أهمية لوك لم تكن مقصورة فقط على ميدان الفلسفة بل تعدته وانتقلت بطريقة طبيعية تطبيقية إلى ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعي.

---

(١) المرجع السابق صفحة ٥١.
(٢) المرجع السابق صفحة ٥٢.
(٣) O'connor, D.J; John Locke, P.22.

فحركة التحرير الكبرى التي سادت أوروبا في القرن الثامن عشر لم تكن سوى امتداد طبيعي لفلسفة لوك - تلك الفلسفة التي كانت تقوم على احترام القيم الإنسانية والحرية الفردية سواء في الدين أو الفكر أو السياسة وتنادي بتحرير الفرد الذي كان قد انطمست شخصيته في ظل من استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت في نار من طغيان الملوك وتعصبهم فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق.

فقد كان لوك نصيراً لسيادة الشعوب. ولما كانت هذه الشعوب مكونة من أفراد فإنه من الواجب أن يستمتع كل فرد منهم بكافة حقوقه وأهمها حق الحياة وحق الملكية الخاصة وحق الحرية وهذه حقوق تقوم على الإنتاج كما يقول لوك وليست منحة من الحكام أو الملوك[1]. وكل فلسفة تنادي بالفرد تقتضي الحرية لأن الحرية هي الشخصية والشخصية هي أساس الفردية[2].

هذه الصرخة المدوية التي أطلقها لوك في إنجلترا في القرن السابع عشر تجاوبت أصداؤها في أوربا كلها وكان لها تأثير مباشر في نجاح الحركات التحريرية التي قامت بها الملايين المكافحة والشعوب التي كانت تسخر لخدمة الاستغلال والإقطاع الاجتماعي والاقتصادي والديني.

---

(١) John Locke. An Essay. Of civil Government, ch, V, P. 76. (In the World's great thinkrs. Poitical Philosophers. edited by saxe commius, New York 1954).

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني - صفحة ١٦٨ - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٦.

فكان لها تأثير مباشر مثلاً في نجاح الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر وذلك نتيجة لتأثير آراء لوك في فلاسفة التحرير الفرنسيين مثل ڤولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو.

فقد تبنى ڤولتير أفكار لوك عن الحرية والتسامح وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الديني منه وينادي بالحرية[١].

بينما أخذ مونتسكيو عن لوك نظريته في فصل السلطات[٢] وأخذ روسو عنه نظرية العقد الاجتماعي[٣].

إلا أن اهمية لوك وتأثيره السياسي لم يقتصر على فرنسا ولا أوربا فقط. بل تعدتها كذلك إلى أمريكا ـ إذ أنه يعتبر مصدر التفكير السياسي الذي ساد الولايات المتحدة إبان ثورتها ـ وهو الفيلسوف الذي أخذ عنه قادة الثورة الأمريكية أفكاره حين وضع وثيقة الاستقلال[٤]. فحين نادت الثورة الأمريكية بحرية الفرد الشخصية إنما كانت في الواقع تردد نفس أنغام الحرية التي طالما رددها لوك وثار من أجلها والتي تبلورت بعد ذلك في المناداة بالديموقراطية باسم الحرية والمساواة وظهرت في شكل مقالتيه في الحكومة المدنية والتي ظهرت في آراء جيفرسون وتوماس بين وفي نص وثيقة الاستقلال الأمريكية تلك الوثيقة التي لم يكن مضمونها من ابتكار واضعيها بل كانت مجرد تعبير

(١) Paul janet & Gabriel Seaille, Histoire de la Philosophie les Problemes et les écoles, P. 1050 (Paris 1928).

(٢) O'connor D.J. John Locke. P. 208.

(٣) Paul Janet & Gabriel seaille, Histoire de la Philosophie P.1051.

(٤) دكتور زكي نجيب محمود ـ حياة الفكر في العالم الجديد ص ١٥.

عن آراء جون لوك[1] وذلك بنص اعتراف جيفرسون أحد المشتركين في إعلانها حين قال أنه لم يشعر بضرورة تدعو إلى ابتكار أفكار جديدة لم يسبق إليها[2].

٣ ـ أهميته في تاريخ الفلسفة:

ترجع أهمية لوك في تاريخ الفلسفة إلى عدة اعتبارات أهمها:

١ ـ أنه يعتبر أول من وضع مشكلة المعرفة بمعناها المعروف لدينا الآن تقريباً موضع البحث والتعمق وليس هذا معناه أن هذه المشكلة لم تكن معروفة في الفلسفة من قبل إنما معناه أننا لا نكاد نلحظ قبل لوك أية محاولة واضحة لدراسة مسائل المعرفة دراسةمستقلة منظمة[3].

٢ ـ وأنه وجه أنظار الناس في عصره لكي يفكروا بطريقة أكثر تعمقاً في المشكلات التي كانوا يتناولونها من قبل بطريقة سطحية[4] وخاصة مشكلات المعرفة من حيث أصلها ومداها ودرجة اليقين فيها وأنه بين أوجه النقص في طريقة التفكير القديمة التي كانت تدرس وتعالج بها المشكلات الفلسفية وتساءل عن مدى تقبل الناس لبعض الأحكام كما لو كانت شيئاً مسلماً بصحته[5] مثل المبادىء الفطرية التي كانت في نظرهم واضحة بذاتها لا تحتاج إلى دليل أو برهان على صحتها.

---

(١) المرجع السابق ص ١٦.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) دكتور فتحي الشنيطي ـ نظرية المعرفة ص ٢٣ ـ القاهرة ط ـ ١.

(٤) Aaron, R.I; John Locke, P.307.

(٥) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

٣ ـ وأنه قدم لمعاصريه دراسات هامة وقيمة وخاصة في التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية وتحليل فكرة الجوهر وتحليل اللغة ومعاني الكلمات[1].

٤ ـ أنه طبق الإتجاه التجريبي في الفلسفة على بحثه في نظرية المعرفة بالذات.

٥ ـ كما ترجع أهميته كذلك في تاريخ الفلسفة إلى المنهج الذي استخدمه في بحثه لنظرية المعرفة إذ أنه اضطر لاتجاهه التجريبي أن يستخدم في أبحاثه الفلسفية منهجاً آخر غير المنهج القياسي الذي كان سائداً في الفلسفة القديمة فحاول أن يطبق في كتابه «مقالة في العقل البشري» المنهج الاستقرائي على أصل المعرفة الإنسانية وكان هذا الإتجاه منه جديداً لأن المنهج الذي كان متبعاً منذ القدم في الفلسفة كان منهجاً استنباطياً ثم بدأ تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة منذ ديكارت.

والمنهج القياسي منهج هابط يهبط من العام إلى الخاص ـ من الكليات إلى الجزئيات ـ بينما المنهج الاستقرائي على العكس منهج صاعد يصعد من الخاص إلى العام، ومن الجزئيات إلى الكليات لذلك فالمنهج الأول يناسب الإتجاه العقلي الذي يضع أمامنا قضايا عامة مسلماً بصحتها أو أحكاماً أولية صادقة بذاتها ويقيس بناء عليها كل ما يصادفه من قضايا جزئية. بينما المنهج الثاني يناسب الإتجاه التجريبي العلمي الذي يبدأ بملاحظة الجزئيات ـ ويستنتج منها قوانين عامة تشملها وتنطبق عليها.

---

(١) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

فإذا كان التفكير العلمي هو السائد في ذلك الوقت وإذا كان ذلك المنهج هو الذي أثر في لوك تأثيراً كبيراً فإننا نستنتج من ذلك أن تطبيق لوك للمنهج الاستقرائي في الفلسفة كان نتيجة لتأثره بالتفكير العلمي وصبغته التي سادت الفكر الإنساني في ذلك الوقت بل وما زالت حتى عصرنا الحاضر على أن التفكير العلمي لم يكن وحده المؤثر في تفكير لوك بل كان إلى جانبه عوامل أخرى مختلفة ومتعددة تتلخص فيما يلي:

أولاً: الفلسفة اليونانية والرومانية:

أ ـ أرسطو:

فقد تأثر لوك بأرسطو الذي ذهب إلى أنه لا يوجد شيء في النفس أو العقل ما لم يكن من قبل في الحس[1] ويبدو ذلك المعنى من قوله كذلك في كتاب «النفس» بأننا في غيبة جميع الإحساسات لا نستطيع أن نتعلم أو نفهم أي شيء[2]. وهذا ما ذهب إليه لوك وخاصة في الكتاب الأول من «مقالة في العقل البشري» من رفض الأفكار الفطرية.

وكان تأثر لوك بأرسطو كذلك واضحاً فيما يتعلق بوظيفة العقل فمن أقسام النفس عند أرسطو ما سماه بالعقل المنفعل وبالعقل الفعال بحيث كان الأول هو الخاص بتلقي الانطباعات الحسية والذي يجب

(١) كتاب النفس لأرسطو، نقله إلى العربية ـ دكتور أحمد فؤاد الأهواني ص ١٢ ط القاهرة ١٩٤٩.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

أن يكون الأمر فيه كالحال في اللوح الذي لم يكتب فيه شيء بالفعل[1] بينما كان الثاني هو القادر على التفكير والتذكر والتخيل إلـخ إذ أنه بدون العقل الفعال لا يمكن أن نعقل[2].

فإذا ما رجعنا إلى لوك عرفنا أن وظيفة العقل في نظره كذلك قسمان:

الوظيفة الأولى سلبية، وهي تلقّي الإنطباعات الحسية من الخارج وتتمثل في الصفحة البيضاء التي تشبه إلى حدٍ بعيد اللوح الذي لم يكتب فيه شيء بالفعل أو العقل المنفعل عند أرسطو بينما الوظيفة «الإيجابية» للعقل فشبيهة بالعقل الفعال عند أرسطو الذي هو سبب جميع العمليات العقلية كالتفكير والتخيل والتذكر الخ. والتي بناء عليها نعرف ما نعرفه.

ب ـ أبيقور

ويبدو أن تأثر لوك بأبيقور كان كبيراً إذ أننا نلاحظ أن نفس الفكرة التي ذكرها لوك عن تكوين الأفكار تكاد تكون موجودة بشكل مبسط أوّلي عند أبيقور الذي يذكر أن الإحساس يؤدي إلى تكوين الأفكار في الذهن فإذا ما تكرر هذا الإحساس أحدث في الذهن معنى كلياً ثبتناه في لفظ وعلى ذلك فالإحساس هو أساس المعرفة.

ج ـ الرواقية:

وقد تأثر كذلك لوك بالفلسفة الرواقية التي تسلم بيقين المعرفة الحسية وترى أنها تتوافر فيها عناصر القوة والثقة والوضوح لدرجة

---

(١) المرجع السابق ص ١١١.
(٢) المرجع السابق ص ١١٣.

أنهم كانوا يعتبرون أن الأفكار الحقيقة الآتية من المعرفة الحسية هي الدرجة الأولى من المعرفة[1].

د ـ شيشيرون:

وقد تأثر كذلك لوك بالفلسفة اللاتينية وخاصة شيشيرون[2] الذي كان تلميذاً مخلصاً للإتجاهات الحسية عند أبيقور وللتصور المادي للعالم الذي نادت به الرواقية[3].

٢ ـ الفلسفة المدرسية:

إلا أن تأثر لوك بفلسفة العصور الوسطى كان أكثر من تأثره بالفلسفة اليونانية أو اللاتينية وذلك يرجع إلى أن أول تعلم تعلمه في وستمنستر وفي أكسفورد كان تعليماً مدرسياً مما ترك أثره واضحاً في كثير من كتاباته وأفكاره الفلسفية فأغلب أفكار لوك الفلسفية الرئيسية مأخوذة أساساً من الفلسفة المدرسية التي أخذ عنها تخطيطها المنطقي للفلسفة جوهرها وأعراضها وماهيتها وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وكلياتها كما نجد هذا الأثر كذلك واضعاً في ميتافتزيقاه وخاصة في فكرته عن الله وصلة الله بالعالم وكذلك فكرته عن الإنسان ومراتب وجوده[4]. حقيقة أن لوك قد خرج على الفلسفة المدرسية ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بها على الإطلاق لأنه لم يبدأ بداية جديدة ولأنه لم يكن يستطع ذلك شأنه في ذلك شأن أي إنسان آخر لا بدّ وأن يتأثر

---

(١) دكتور محمد فتحي الشنيطي ـ المعرفة ص ٤٢، طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٧.

(٢) Aaron, R.I. John Locke, P.8.

(٣) Paul Janet & Gabriel seaelle, Histoire de la Philosophie p.985.

(٤) Aaron, R.I; John Locke, P.8.

بالعوامل الثقافية التي ترسبت في نفسه وذهنه منذ طفولته لذلك بدأ لوك يبني فلسفته على التراث الفكري الذي تعلمه من قبل وكان هذا التراث مدرسياً[1].

وقد صادف لوك كثيراً من العقبات حين حاول التوفيق بين الأفكار الميتافيزيقية وبين الإتجاه التجريبي الذي بدأ به في كتابه «مقالة في العقل البشري» ثم انتهى إلى تفسيره لهذه الأفكار الميتافيزيقية بأنها في حكم اللامعرفات أو التي لا يمكن تعريفها[2]. وأهم هذه الأفكار التي تأثر بها لوك من الفلسفة المدرسية فكرة الجوهر بمعنى أنه ذلك الموجود بذاته أو الواجب الوجود باعتباره حاملاً لكل الخصائص والصفات والأعراض وكذلك فكرة الماهية أو الوجود الحقيقي للشيء بمعنى أنها ذلك التركيب الداخلي الحقيقي للأشياء الذي تعتمد عليه كل الصفات الحسية في وجودها[3].

٣ ـ ديكارت:

لا ينكر لوك تأثره بديكارت ويعترف بذلك في رسائله إلى ستيللنجفليت فيقول: «إن الفضل في تحرره من الطريقة العتيقة التي كانت تتبعها الفلسفة المدرسية في معالجة مشكلات الفلسفة والتي كانت سائدة في عصره إنما كان يرجع إلى كتابات ديكارت ومؤلفاته[4] ويؤكد هذا المعنى كذلك ما ذكرته السيدة ماشام من أن لوك أخبرها

---

(١) المرجع السابق ص ٦.

(٢) Gibson, J; Locke's theory of know ledge. P.190 (Cambridge, University Press, second edition, 1931).

(٣) المرجع السابق ص ١٩٦.

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٥.

بأن مؤلفات ديكارت كانت أول ما جعله يتذوق الفلسفة ويستمتع بها[1].

ويتلخص تأثير ديكارت في فلسفة لوك فيما يلي:

في طريقة البحث:

وتناول مشكلات الفلسفة. فقد كتب ديكارت يقول في كتابه «قواعد لهداية العقل».

« يبدو لي أنه لن يكون هناك شيء أكثر فساداً أو إخفاقاً من أن يناقش الإنسان بكل اندفاع أسرار الطبيعة وتأثير النجوم وخفايا المستقبل قبل أن يسأل نفسه عن مدى ملاءمة العقل الإنساني وقدرته على مناقشة مثل هذه المشكلات»[2]. وهو نفس المعنى الذي ذهب إليه لوك حين رأى أنه يجب على الإنسان قبل أن يبحث في مشكلات الطبيعة أن يبدأ بدراسة قدراته العقلية لكي يعرف لأي الموضوعات تصلح وأيها لا تصلح[3].

(د) في المعرفة الحدسية:

وهي بالنسبة لهما واضحة يقينية مع اختلاف كل منهما عن الآخر في أصل هذه الأفكار التي نعرفها بالحدس.

في معرفة الذات:

قد تأثر لوك بديكارت في معرفة الذات معرفة حدسية فكما قال

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠.

(٣) John Locke, The Epistle to the reader, P.X

ديكارت في الكوجيتو «أنا أفكر إذن أنا موجود» وأن هذه أول معرفة يدركها الإنسان بحدسه. ذهب لوك إلى أن اليقين بوجود الذات متضمن في كل عملية من عمليات العقل ولذا فمعرفتنا بوجودها (أي الذات) تكون معرفة ضرورية يقينية وذلك لأنها معرفة حدسية[1]. هذا ويبدو تأثير ديكارت في فلسفة لوك في أكثر من موضوع في كتابه «مقالة في العقل البشري» وفي الكتاب الرابع على وجه الخصوص الذي تناول فيه أنواع المعزفة ودرجاتها وخاصة المعرفة الحدسية والمعرفة البرهانية.

إلا أن هذا لا يعني أن لوك قد تأثر بديكارت بدرجة كبيرة، بل على العكس نجده يعارضه في كثير من أفكاره الرئيسية في الفلسفة وخاصة في نقده للمعرفة الفطرية وإنكاره لقول ديكارت بأن الروح دائمة التفكير وأن الجسم ماهيته الامتداد فقط أو عدم وجود الخلاء[2].

٤ ـ أفلاطونيو كمبردج:

وهم عدد من الفلاسفة أسسوا مدرسة دينية ازدهرت في كمبردج في منتصف القرن السابع عشر وأهم ممثليها بنيامين ويتشكوت وجون سمث وهنري مور ورالف كودورث وقد اهتموا بنقد فلسفة هوبز المادية وكانوا بصفة عامة عقليين في نظراتهم الفلسفية[3] وخاصة في محاولتهم التوفيق بين الإتجاه الأفلاطوني العقلي وبين الفلسفة الدينية

(١) Gibson, J.Locke's theory of knowledge, P.222.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٠.

(٣) Aaron, R I; John Locke, P.27.

المسيحيـة[1] ويمكننـا أن نلخص أهم مـا تـأثـر بـه لـوك من أفكـار أفلاطونيي كمبردج في الآتي:

(أ) تأثره بكمبرلند في كتابه De Legibus Naturac الذي ذهب فيه إلى أن الأفكار أو المفهومات البسيطة Apprechensions التي تتكون المادة الأولى للمعرفة منها - إنما ترجع إلى مصدرين هما الإحسـاس الداخـلي والإحساس الخارجي ثم يقوم العقل بعملية التجريد لتكوين الكليات أو الأفكار العامة[2] ويبدو ذلك الأثر في فلسفـة لوك حـين ردّ المعرفـة إلى الأفكـار البسيطة التي ليس لهـا مصدر أو سبيـل إلا الإحسـاس أو التأمل الذاتي.

(ب) تأثره بالتفرقة التي ذهب إليها أفـلاطونيّـو كمبردج وخـاصة هنري مور - بـين الجسم والمكان - أي بـين المادة الممتـدة وبين المكـان الذي يمكن أن تشغله[3].

(ج) في تصورهم للجوهر الروحي وخاصة فكرتنا عن الله[4]

(د) تـأثره بـأفلاطـونيي كمبردج في قـولهم بحـاجـة الإنسـان إلى التصورات الدينية لكي تساعده على فهم وتفسير الظواهر الطبيعيـة[5] وإلى ضرورة الـوحي لاستكـمال المعـرفـة وذلــك لأن العقـل لا يمكن الركون إليه إلا فيما يتعلق بما هو داخل في حدود مجاله وإمكانياتـه وفي

---

(١) Leslie Paul. the English Philosophers. d. 94.

(٢) Gibson. J; Locke's theory of knowledge. P.242.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٦.

(٤) Aaron. R.I; John Locke. P.29.

(٥) Gibson. J. Locke's theory of knowledge. P. 268.

أنه لا يوجد مجال للنزاع بين العقل والإلهام لأن كلا منهما يكمل الآخر[1].

(هـ) وتأثير أفلاطونيي كمبردج لا يظهر فقط في أفكار لوك الفلسفية بل كذلك في فلسفته الدينية مثل خطابات في التسامح ومعقولية المسيحية بل إنه دعا إلى قراءة كتب ومؤلفات رالف كودورث في كتابه «أفكار عن التربية»[2]. إلا أن القول بأن لوك قد تأثر بأفلاطونيي كمبردج إلى هذا الحد لا يزيل ما بينه وبينهم من اختلاف واضح يمكن تلخيصه فيما يأتي:

١ ـ إن أغلب أفلاطونيي كمبردج كانوا يؤمنون بوجود الأفكار الفطرية[3] التي أنكرها لوك.

٢ ـ إنهم كانوا يؤمنون بأن هناك عالماً خارجياً قوامه معقولات بينما كان لوك حين يتحدث عن الكليات أو الأفكار العامة لا يعتقد انها أشياء موجودة في عالم عقلي حقيقي بل على أنها من صنع عقولنا نحن وبالتالي فليس لها وجود خارج الأذهان[4].

٥ ـ جسندي:

وقد تأثر لوك كذلك بأفكار الفيلسوف الحسي[5] الفرنسي بيير جسندي الذي كان من أشد المعارضين للفلسفة المدرسية التي كانت

---

(١) Aaron, R I: John Locke, P.29.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) Gibson, J; Locke's theory of knowledge, P.241.

(٤) Aaron. R. I; John Locke, P.30.

(٥) Paul Janet & Gabriel seaille, histoire de la philosophie p. 1015.

تدرس في الجامعات في ذلك الوقت والذي كان معروفاً بنقده لديكارت والديكارتية وخاصة بالنسبة لفطرية المعرفة ويبدو تأثير جسندي في لوك بوضوح في قوله «ان كل فكرة توجد في العقل إنما يكون أساسها راجعاً إلى الحواس فبالنسبة للشخص الذي يولد وهو أعمى لا يمكن أن تتكون في ذهنه أية فكرة عن اللون ما دامت حاسة الإبصار التي تؤدي إلى تكوين هذه الفكرة ناقصة فيه ـ وكذلك الشخص الذي يولد أصم لا يمكن أن يكون في ذهنه أية فكرة عن الصوت ـ ما دامت تنقصه الحاسة التي تؤدي إلى تكوين هذه الفكرة وهي حاسة السمع وبالتالي إذا وجد شخص فاقد لجميع حواسه فإنه لن يتمكن من تكوين أية فكرة على الإطلاق أو أن يتخيل أي شيء[١].

وعلى ذلك فلن يكون هناك في عقل الإنسان ما لم يكن من قبل في حواسه إذ أن العقل عبارة عن صفحة بيضاء ليس عليها أي انطباع أو أي فكرة سابقة على خبرة الحواس[٢].

٦ ـ المنهج العلمي وتقدم العلوم:

وهو أهم العوامل التي تركت أثرها في فلسفة لوك وصبغت أفكاره بالصبغة التجريبية العملية والذي كان يمثله ثلاثة، اثنان من العلماء والثالث من الفلاسفة وهم: اسحق نيوتن روبرت بويل، فرانسيس بيكون.

فهو قد تأثر بالطريقة العملية في التفكير التي نادى بها بيكون في

---

(١) Aaron, R I; John Locke, P.72.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨.

كتابه الأورجانون الجديد Novum Organum وخاصة في قوله «اننا كي نعرف شيئاً أكثر فيما يتعلق بالعلم الطبيعي الذي يعرفه الإنسان يجب علينا أن نزيد من ملاحظاتنا لقوانين الطبيعة نفسها بحيث تكون هذه الملاحظة إما منصبة على الأشياء نفسها أو بواسطة العقل لأنه بغير ذلك لا يمكننا أن نعرف شيئاً أكثر»[1] وهو نفس الإتجاه الذي ذهب إليه لوك من بعد حين جعل أساس المعرفة الإنسانية أو أصلها مستمداً من التجربة الحسية والعقل أي الإحساس والتأمل الذاتي وهذا ما سأتناوله بالتفصيل فيما بعد.

وقد استفاد لوك من التقدم العلمي الهائل الذي كان يتمثل في أبحاث جاليليو ونيوتن وبويل - إذا أنه في طليعة من استخرجوا النتائج الفلسفية للعلم الحديث - وحللوا مضمونه تحليلاً ينتزع مدلوله بالنسبة إلى الفلسفة والسياسة والدين[2] وذلك لأنه:

أولاً تلقى عن العلم الحديث وخاصة عن جاليليو ونيوتن التفرقة بين الظواهر كما هي في الأشياء الخارجة عن الإنسان (أي المحسوسات) وبين الظواهر كما تقع في إدراك الإنسان (أي الإدراك الحسي عنها). التفرقة بين صفات في الأشياء - تكون جزءاً من طبيعتها (أي أولية) وبين صفات تحسها وليست جزءاً من طبيعتها (أي عرضية أو ثانوية) الأولى كالحجم والشكل والثانية كالألوان والطعوم والروائح[3] ثم طبق ذلك المعنى في فلسفته قائلاً: ان للأشياء صفات وخصائص مختلفة منها ما هو أولي - أي ذاتي في الشيء

(١) المرجع السابق ص ١٣.
(٢) الدكتور زكي نجيب محمود حياة الفكر في العالم الجديد ص ١٧.
(٣) المرجع السابق ص ١٨.

نفسه بحيث لا يمكن تصور الشيء بدونها لأنها ملازمة له على أي وضع كان وثابتة مهما حدث فيه من تغييرات وسماها لوك بالصفات الأولية ـ ومنها أيضاً ما هو ثانوي بمعنى أنها ليست ذاتية في الشيء ولا أساسية فيه بل هي مجرد قوى تحدث فينا إحساسات مختلفة بواسطة الخصائص الأولية في الأشياء وسماها لوك بالصفات الثانوية[1].

وكانت هذه التفرقة بين الصفات الأولية والثانوية للأشياء هي التي أدت به إلى القول بفكرة الجوهر ـ باعتباره حاملاً لهذه الأعراض أو الصفات الثانوية.

فقد طبق لوك فكرته عن الجواهر في ميدان الدين حين قسّم الجواهر إلى نوعين ـ مادي وروحي ـ والروحي إلى قسمين متناه كالنفس غير متناه وهو الله.

فإذا كان هذا التقسيم للصفات التي تتصف بها الأشياء صحيحاً كما يقول العلم عند نيوتن وبويل فإن هذا يستتبع السؤال عن الذات المدركة وعلاقتها بتلك الأشياء المادية التي تدركها ـ أي عن العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

وقد أجاب لوك على هذا التساؤل بأن الصفات الثانوية ليست موجودة في الأشياء بل هي نتيجة لصفاتها الأولية هي في الواقع مجرد إحساسات (كالألوان والطعوم والروائح . .) تنتج عن تأثر الإنسان بالمؤثرات المادية. وعلى ذلك فطبيعة الذات المدركة لا يمكن أن تكون هي أيضاً مادية فقط. أي لا يمكن تفسير طبيعة الإنسان على أنه كومة

---

(١) Essay, B II, ch. V111, secs, 8. 910, PP. 85-86.

من الذرات المادية التي فسر بها نيوتن وبويل الطبيعة المادية[١] إنه لا بدّ وأن يكـون مغايـراً في طبيعته لـطبائـع تلكَ الأشياء المـادية بحيث إذا تأثرت طبيعته بطبائع الأشياء الماديـة أحدث هـذا التأثـر الصفات التي قيل عنها إنها تكون في الإنسان ولا تكون في عالم الأشيـاء وعلى ذلـك فالإنسان بطبيعته عنصر عقلي بالإضافة إلى جسمه المادي[٢].

بمعنى أن طبيعة الإنسان لا بدّ أن تكون شيئاً أكثر من المادة ـ إذ أنها لو كانت مادية فقط لما أحس بما حوله من أشياء مادية ولكان هناك فقط تـأثير بـين مادة وأخـرى كتأثـير النـار في الـذهب والمغنـاطيس في الحديد.

وكذلك طبيعة الإنسان ليست عبـارة عن الإحساس فقط ـ بـل هي أكثر من ذلك لأن مجرد انطبـاع الإحساسـات في الإنسان لا يعني فهمها.

إذ أن هنـاك فرقـاً كبيـراً بـين الإحســاس وبـين الإدراك الحسي والإنسان يتميز عن غيره من بقية الكائنات الحساسة بـأنه يـدرك معنى هذه الإحساسـات وذلك عن طريق العقل! وهـذا العقل في نـظر لوك عنصر أولي بسيط التكـوين ـ لا يتجزأ ولا يتحلل. كـما هو الشـأن في الشيء المادي ولهذا استحال فساده وتحلله بعد الموت إنه صوت الله في الإنسان[٣]. وقد طبق لوك فكرته هذه في مجال الدين قائلاً ان العقـل هو الذي يهدي الإنسان إذا ما استوحاه وأنصت إليه في إملاء عقيدتـه

---

(١) Leslie Paul, the english philosophers, P.88.

(٢) دكتور زكي نجيب محمود ـ حياة الفكر في العالم الجديد، ص ٢٦.

(٣) Leslie Paul, the English philosophers, P.123.

فيذكر لوك في رسالته عن التسامح أن الطريق الضيق الـذي لا طريق سواه والذي يؤدي إلى السماء. لا يعرفه القاضي بـأكثر مما يعرفـه كل إنسان لذلك لا أستطيع أن أتخذ من هـذا القاضي وأنـا مطمئن هـادياً يهديني لأنه قد يكون على جهل بـالطريق مثـل جهلي واليقـين هو أنـه أقـل اهتماماً بنجاتي مني بنجـاة نفسي لهذا كـان روح الفرد من شـأن صاحبه وحده دون سواه ولا بدّ أن يترك وشأنه فيه[1].

ثم طبق لـوك فكرتـه على هـذه السياسـة متخذاً فكـرة الفرديـة أساساً لفكرة الحرية لأن كل فلسفة تنادي بالفرد تقتضي الحـرية قـائلاً ان القانون المدني مسنده الوحيد هـو قبول العنصر العقـلي في الإنسان ولما كان كل عنصر عقلي منفـرد مستقلاً عن زميله كـانت أغلبية الآراء هنا هي السند الذي يستند إليه القانون المدني. وهكذا يقوم المجتمـع بموافقة جميع أفراده[2] إذ ليس الفرد الواحد حجة على زميله[3].

ثانياً وكذلك لأن لوك أخذ عن نيـوتن وبويـل نظريتهـما الذريـة الـطبيعية في أن المـادة تتركب من ذرات صغـيرة بحيث إذا ما اختلفت طـريقة تـرتيب تلك الجزئيـات الصغيرة تبعهـا اختلاف في نـوع المادة وبالتالي في صفاتها الثانوية[4] واستنتج منها أن التركيب الـداخلي للمادة هو الذي تتوقف عليه صفاتها الثانوية كاللون والطعم والرائحة الخ. فإذا كان العلم الطبيعي في ذلك الوقت يجعل من الظواهر المحسـوسة شيئاً غير حقيقة الأشياء فالطبيعـة التي تقع في حس الإنسـان إنما تقـع

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود ـ حياة الفكر في العالم الجديد، ص ٢٦.

(٢) Jhon Locke Essay of civil Government. B. 11. ch.8. sec. 96. P.III

(٣) دكتور زكي نجيب محمود ـ حياة الفكر في العالم الجديد ص ٢٧.

(٤) Leslie Paul. the English Philosophcprs. P.90.

على غرار واحد في الناس جميعاً على السواء[1] بمعنى أن ما هو محسوس يمكن أن يحسه الناس جميعاً لأن الطبيعة ساوت بينهم حين أعطت لكل منهم فرصة مساوية للآخر ـ بواسطة الحواس ـ أي أن الإنسان حين يدرك شيئاً إنما يدركه من الطبيعة بحواسه. إذ ليس هناك شيء في العقل ما لم يكن من قبل الحس.

وقد طبق لوك ذلك في مجال الفلسفة ـ فرفض الأفكار الفطرية الموجودة في عقول الناس منذ القدم. قائلاً ان مصدر المعرفة لا يمكن أن يخرج عن الإحساس والتأمل الذاتي وهذا معناه في ميدان السياسة أن الناس جميعاً يولدون وهم متساوون في طبائعهم الواعية أي العقل ـ كل يدرك ما يدركه الآخر من ظواهر الأشياء بواسطة الحس[2].

أي أن الناس كذلك جميعاً يولدون وهم متساوون في عدم المعرفة وبالتالي في جهلهم السابق على كل تجربة حسية. فإذا كانوا كذلك فلم لا يكونون متساوين في حقوقهم وواجباتهم إن الطبيعة التي قررت ذلك هي التي تقرر مساواة الناس بلا تفرقة أو تمييز إذ أن أساس المساواة عند لوك يرجع إلى أن الله قد وهب لكل إنسان عقلاً خالياً من كل معرفة سابقة كي يفهم حياته وينظمها بطريقة تناسبه[3].

فكان لرفض الأفكار الفطرية عند لوك أثرها الكبير في التبشير بالمساواة بين الأفراد من الناحية الاجتماعية والسياسية والدينية وذلك

(١) دكتور زكي نجيب محمود ـ حياة الفكر في العالم الجديد ص ٢٨.
(٢) المرجع السابق ص ٢٩.
(٣) Leslie Paul, the English Philosophers. P. 111.

بناء على تساويهم في الطبائع الواعية. بذلك استخرج لوك من النظريات الطبيعية ما طبقه في ميدان الفلسفة وما استغله في ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعي فيما بعد.

ويمكننا أن نذكر بكل حذر أن لوك لم يكن مبتكراً أو مبدعاً خلاقاً لهذه الآراء بقدر ما كان مطوراً للإتجاهات العلمية في ذلك العصر مستنتجاً منها ومطبقاً لها في مختلف الميادين وأقول بكل حذر لأن ذلك لا يقلل على الإطلاق من قيمته وأهميته وتأثيره في عالم الفلسفة وميدان السياسة والأخلاق فشأنه في هذا شأن أي إنسان أو أي فيلسوف أو مصلح اجتماعي آخر يتأثر دائماً بالمجال الاجتماعي الذي يعيش فيه وبالتراث الفكري والفلسفي والعلمي والثقافي الذي تلقاه عن الأجيال السابقة ثم بظروف البيئة الموجود فيها وحاجة تلك البيئة إلى تغيير ذلك التراث وتطويره بطريقة تتناسب وحاجة المجتمع إلى ذلك.

وما المصلح الاجتماعي إلا شخص استطاع بصفاء ذهنه ودقة إحساسه وعمق تفكيره وتفتح وعيه على المفهومات التي تنقص المجتمع وعلى الإتجاهات الكامنة فيه أن يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الإتجاهات وأن يبلورها ويعبر عنها في شكل مفهومات جديدة تتناسب مع حاجة المجتمع إليها.

ولقد استطاع جون لوك أن يفعل ذلك فهو قد استطاع أن يلحظ الإتجاهات الجديدة في المجتمع التي صاحبت التقدم العلمي الكبير واستطاع أن يقدم لعصره هذه الإتجاهات في شكل نوع جديد للفهم الإنساني وطبيعته ومفهوم جديد لاتجاهاته التطورية في إطار من

فلسفة الحرية مستمداً أساس ذلك من العلوم الطبيعية عند كل من جاليليو، نيوتن، بويل .

٤ ـ الأساس التجريبي في فلسفة لوك

(١) رفض الأفكار الفطرية:

يمكن تلخيص أهم العوامل التي أثرت في فلسفة لوك في اتجاهين رئيسيين:

١ ـ اتجاه تجريبي علمي مصبوغ بالصبغة الحسية[١].

٢ ـ اتجاه عقلي مصبوغ بالصبغة المثالية الميتافيزيقية.

إلا ان الإتجاه الأول الذي تأثر فيه بنيوتن وجاليليو وبيكون وهوبز كان هو السائد في أغلب مؤلفات لوك وأفكاره الفلسفية فهو قد استطاع أن يبلور العناصر التجريبية في الفلسفة اليونانية القديمة والاتجاهات التجريبية العلمية عند فرانسيس بيكون والاتجاهات الحسية عند جسندي وهوبز والمنهج الشكي المصبوغ بالصبغة العقلية عند ديكارت وصبغها بالصبغة العلمية السائدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر والتي كانت تتمثل في فلسفة الطبيعة أو (الفلسفة الجديدة) في ذلك الوقت ـ وقدمها في شكل فلسفة تجريبية نقدية جديدة وكان أول ما ذهب إليه لوك تطبيقاً لذلك الاتجاه التجريبي في الفلسفة هو رفضه لأهم مبادىء الاتجاه العقلي أي إنكاره أن تكون المعرفة الإنسانية أولية في العقل أو مفطورة فيه سابقة على كل تجربة

---

(١) Morris, C.R; Locke, Berkleg and hume, P.8, (Oxford university Press 1931).

كما كان الحال بالنسبة لأفلاطون الذي يعتبر الممثل الحقيقي لنظرية المعرفة الفطرية والذي ذهب في محاورة فيدون إلى أن النفس أزلية أبدية.

بمعنى أنها كانت قبل أن تهبط إلى هذا العالم وترتبط بالجسد موجودة في عالم آخر أسمى من عالم المحسوسات هو عالم الخير والجمال والحق عالم المثل الذي عرفت فيه جميع أنواع المعرفة[1] ثم حين ارتبطت بالجسد أصبح الجسد بمثابة الغلالة التي حجبت عنها كل معرفة سابقة[2] أي أن المعرفة ليست اكتشافاً لجديد بل مجرد تذكر لما كانت تعرفه من قبل[3] «ولذا فإنك إذا ألقيت على شخص سؤالاً بطريقة صحيحة أجابك من تلقاء نفسه جواباً صحيحاً ـ فكيف استطاع ذلك ما لم تكن لديه من قبل به معرفة ومنطق مصيب»[4]. «لا بدّ أن يكون قد تعلمها في وقت آخر طالما هو لم يكتسبها في هذه الحياة. وهذا يعني أن نفسه تعرف كل هذه الأشياء وغيرها معرفة أولية»[5].

ولذا فالتذكر كما يعرفه أفلاطون ليس سوى عملية لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال[6].

وقد أيد أرسطو كذلك وجود المعرفة الأولية في العقل حين أكد

---

(١) The Dialogues of plato, phaedo, p. 71 (from the third jowett translation, Oxford university press 1927).

(٢) المرجع السابق ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق ص ٦٧.

(٤) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٥) المرجع السابق ـ محاورة مينون ص ١٦٣.

(٦) المرجع السابق ـ محاورة فيدون ص ٦٨.

وجـود المبادىء العقليـة الأولية. وهي المبـادىء الضرورية الـواضحـة بذاتها ـ والتي لا تحتـاج إلى أي دليل أو بـرهان عـلى صحتها[1] فـأكد وجودها في العقل وجوداً ضرورياً أولياً.

وأرسـطو بالـرغم من أنه كـان يميل إلى الاعتـماد عـلى الحـواس والتجـربة الحسيـة على أنها هي السبيـل الـذي تستمـد منه المعـرفـة وجـودها[2] إذ لا شيء في العقـل ما لم يكن من قبـل الحس[3] إلا ان هذه التجربة الحسية في نظره لا تعتبر في ذاتها غاية بقدر ما هي وسيلة توصل إلى المعرفة الحقيقية وهي المعرفة بالماهيات[4].

وحيث ان الماهيات ليست سوى تجريدات ذهنية يجردها العقـل من الجزئيات فهي لن تكون موجـودة إلا في الذهن فحسب[5] ويقـوم الذهن بالبرهنة على صحتها وصدقها بالاستدلال أو الاستقراء.

ولما كان من المستحيـل أن نجـد بـرهـانـاً لكـل شيء وإلا فـإن التسلسل في البرهان سيستمر إلى ما لا نهاية[6] فلا بدّ أن تكـون هناك مبـادىء كلية تعم جميـع الموجـودات بحيث نقف عندهـا أو نبدأ منهـا يقينيـة واضحة بـذاتها بحيث لا تحتـاج إلى أي دليـل أو بـرهـان عـلى

---

(1) Aristorle Metaphysics, Book t, ch, IV, P.125. (Translated by John Warrington London, 1956, Every man's Library N" 1000).

(2) دكتور عبد الرحمن بدوي ـ أرسطو ص ٦٥ ـ ٢٧ القاهرة ١٩٤٤.

(3) كتـاب النفس لأرسـطاليس ـ نقله إلى العـربيـة دكتـور أحمـد فؤاد الأهـواني ص ١٢٠ ط ١.

(4) دكتور عبد الرحمن بدوي ـ أرسطو ص ٦١.

(5) المرجع السابق ص ٤٨.

(6) المرجع السابق ص ٦٢.

صحتها أو صدقها[1] هي المبادىء الأولى First Principles التي لا يمكن أن تستخلص من المحسوسات[2] والتي لا يمكن أن يقام على صحتها البرهان لا بالقياس ولا بالاستقراء لأنها أولية ولأنها ستكون الأساس الذي نبدأ به البرهنة على أية معرفة[3].

وأهم المبادىء الأولية مبدأ الذاتية ومبدأ التناقض ومبدأ الوسط المرفوع أو (الثالث المرفوع)[4].

ويتلخص مبدأ التناقض في القول بأن الصفة الواحدة يمكن أن تحمل وأن لا تحمل على نفس الموضوع في نفس الوقت ومن نفس الجهة[5].

فلا يقال مثلاً أن الشيء الواحد موجود وغير موجود في نفس اللحظة وهذا القانون يتضمن فعلاً مبدأ الذاتية فنحن إذ نتكلم عن الموضوع إنما نعني به شيئاً معيناً لا يمكن أن يكون إلا هو نفسه وهذا ما أوضحه أرسطو في فكرته عن الجوهر. أما قانون الثالث المرفوع فيتلخص في أنه «لا وسط بين نقيضين وأن الصفة إما أن تكون مثبتة في الموضوع أو منفية عنه»[6]. مثل قولي ان الوجود إما موجود وإما غير موجود ولا وسط بينهما وهذا القانون يعتمد على المبدأ السابق إذ ليس هو إلا مبدأ عدم التناقض في صيغة شرطية[7].

---

(١) Aristotle, Metaphysics, Book T, ch. IV P. 125.

(٢) دكتور عبد الرحمن بدوي أرسطو ص ٦٣.

(٣) Aristotle, Metaphysics, Book t, ch. I, P. 116.

(٤) دكتور عبد الرحمن بدوي ـ أرسطو ص ٦٥.

(٥) Aristotle, Metaphysics, Book T, ch III P. 124.

(٦) المرجع السابق ص ١٤٢.

(٧) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ١٧٣ ط ٢ القاهرة ١٩٤٦.

كما كانت الفلسفة المدرسية كذلك تعترف بوجود الأفكار الفطرية إذ كان البحث في نظرية المعرفة من وجهة نظر الفلسفة المدرسية يعتمد على اظهار ما فيها من مبادىء فطرية وكانت تستخدم تبعاً لذلك القياس منهجاً علمياً تعتمد عليه كل معرفة من حيث هو استخلاص نتائج معينة من مجموعة من البديهيات أو المبادىء المسلم بصحتها مثل المبادىء الرياضية (الكل مساوٍ لمجموع أجزائه ـ أو أن الكل أكبر من أي جزء من أجزائه) ومثل قوانين الذاتية وعدم التناقض التي كانت تعتبر كلها مبادىء معروفة معرفة فطرية أولية Ex Praecogni-tis ومتفق عليها من الجميع Praeconcessi والتي لم تكن بمثابة الحقائق أو البديهيات التي يعتمد عليها علم من العلوم فقط بل المعرفة الإنسانية بصفة عامة[1].

كما عرف الفلاسفة المسلمون كذلك نظرية الأفكار الفطرية فيذكر الغزالي مثلاً في الرسالة اللدنية «أن العلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر أو في قلب المعدن»[2]. بحيث تعلم النفوس أنها كانت عالمة في أول الفطرة وصافية في أول الاختراع وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف والإقامة في هذا المنزل الكدر والمحل المظلم وأنها لا تطلب بالتعلم إيجاد العلم المعدوم ولا إبداع العقل المفقود بل إعادتها إلى العلم الأصلي الغريزي.

وقد احتاجت النفس في أثناء العمر إلى التعلم طبقاً لتذكار ما

---

(١) Gibson, J; Locke's theory of knowledge, p. 186.

(٢) الجواهر الغوالي ـ من رسائل الإمام حجّة الإسلام الغزالي ـ الرسالة اللدنية ص ٢٣ جمع وتحقيق محي الدين الكردي ـ ط ١ القاهرة ١٩٣٤.

قد نسيت وطمعاً في وجدان ما قد فقدت»[١]. وهو بهذا يقترب كثيراً من أفلاطون ونظريته في التذكر.

وكان أفلاطونيو كمبردج يؤيدون فطرية المعرفة فأرجح سمث فطرية الأفكار أو الحقائق الخالدة إلى طبيعة الروح الغير مادية ومعرفيها بها وكان يرجعها هنري مور إلى أن النفس كانت موجودة قبل أن يولد الإنسان وذلك حين كانت الروح تعيش في عالم أرقى وأكثر صفاء[٢] مثل أفلاطون.

فإذا ما انتقلنا إلى الفلسفة الحديثة وجدنا أن ديكارت قد أيد وجود المعرفة الأولية حين اعترف بوجود الأفكار الفطرية ويبدو ذلك جلياً من تقسيمه للأفكار إلى ثلاثة أنواع فطرية Innees وعارضة أو طارئة Adventlces ومؤلفة مصنوعة Factces فيقول «هذه الأفكار يبدو بعضها مفطوراً في وبعضها غريباً عنّي ومستمداً من الخارج والبعض الآخر وليد صنعي واختراعي»[٣].

والأفكار الفطرية عند ديكارت غريزية بمعنى أنها ليست مستفادة من الحواس. ولا مركبة بالإرادة ـ إنما مرجعها إلى ما فينا من قوة على الفكر ولذا فهي أحوال ذهنية موجودة في النفس قبل أي تجربة[٤] إلا أنها ليست مطبوعة في الذهن أو مرتسمة فيه كأبيات

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨.

(٢) Gibson, J; Lock's theory of knowledge. P.241.

(٣) التأملات في الفلسفة الأولى ـ التأمل الثالث ـ ترجمة دكتور عثمان أمين ص ١٢٩ القاهرة ١٩٥١.

(٤) المرجع السابق ـ هامش ص ١٢٩.

الشعر في الديوان ولكنها فيه بالقوة كالأشكال في الشمع. إنها في عقل الطفل على نحو ما هي في عقل الراشد حين لا يفكر فيها[1].

ويضرب ديكارت مثلاً للأفكار الفطرية بالكوجيتو أو بمعرفة الإنسان لذاته فهو حين يقول أنا أفكر إذاً فأنا موجود Cogitoergosun إنما يعني حقيقة عقلية ثابتة ضرورية لا يمكن الشك في صحتها لأنه مهما شك فإن مجرد الشك يعني التفكير وبالتالي يعني وجود الذات المفكرة.

إنها معرفة فطرية عند ديكارت لأننا لم ندركها بالحواس ولم نبرهن على صحتها بالقياس أو الاستقراء بل لأننا أدركناها بنوع من الغريزة العقلية هي النور الفطري أو الحدس العقلي[2].

وحيث إن العقل السليم عند ديكارت هو أعدل الأشياء قسمة وتوزعاً بين الناس[3] فإن هذه المعارف الفطرية بالإضافة إلى أنها ثابتة وضرورية فهي كذلك لا بدّ وأن تكون عامة بمعنى أن كافة العقول الإنسانية يكفي أن تعرفها بهذا الحدس العقلي ـ أما لوك فقد رفض هذه النظرية.

وأفرد لذلك الغرض الكتاب الأول من «مقالة في العقل البشري» إلا أن رفضه لها لم يكن رفضاً دوجماطيقياً لمجرد إحلال مذهب محل آخر. بل كان رفضاً واعياً يقوم على أساس من المناقشة

---

(١) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٦٩ القاهرة ١٩٤٦.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) Descartes, discourse on Method, Part I,P. 163 (in the world great Thinkers, philosophers of science. New York, 1654.

وتفنيد الحجج والبراهين حتى إذا استبعدنا من أذهاننا ما هو باطل. استطعنا أن نتبيّن ما هو حق وأن نبني ما هو قائم على الحق.

ولم يكن عمل لوك هيناً خاصة وأن نظرية المعرفة الفطرية كانت قد ازدادت قوة بالرغم من اعتراضات جسندي وتابعيه أثناء القرن السابع عشر سواء في القارة الأوربية أو في انجلترا[٣]. ويرجع ذلك إلى سيادة فلسفة ديكارت في هذه الفترة وبالإضافة إلى ما ذهب إليه أفلاطونيو كمبردج من تأكيد فطرية الأفكار وإلى ظهور فلسفة ليبنتز العقلية امتداداً للاتجاه العقلي الديكارتي وتأييده لوجود المعاني الفطرية في عقل الإنسان وقد بدأ لوك في الكتاب الأول من «مقالة في العقل البشري» بمناقشة هذه النظرية ـ فاستعرض الآراء القديمة والحجج والبراهين التي استخدمت لتدعيم هذه النظرية مفنداً إيّاها واحدة بعد الأخرى قائلاً «إن هناك اعتقاداً قوياً ثابتاً عند بعض الناس بوجود المبادىء الفطرية أو الأفكار الأولية كما لو كانت محفورة في العقل أو مطبوعة عليه تلقتها الروح منذ وجودها القديم وجاءت بها إلى هذا العالم»[١]. ويستطرد قائلاً «ويكفي لكي أقنع القارىء غير المتعامل بكذب هذا الاعتقاد أن أبيّن له: كيف أن الناس يمكنهم أن يصلوا إلى كل ما لديهم من معرفة بواسطة استخدام قدراتهم الطبيعية فقط وبدون الحاجة إلى أية إنطباعات فطرية ـ بل يمكنهم كذلك أن يبلغوا اليقين بدون الاعتماد على مثل هذه الأفكار أو المبادىء الأولية»[٢].

ولكن من هم هؤلاء الذين يقصدهم لوك بقوله انهم كانوا

---

(١) Aaron, R. I, John Locke, P. 70.

(٢) Essay, B, I, ch. 11, sec. I, P.12.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

يعتقـدون في فـطريـة المعـرفـة؟ لم يشر إلا إلى اللورد هـيربـرت شيربوري[1]. الذي ذكر في كتابه «في الحقيقـة» De Veritate ان هناك خمسة مبادىء عملية معروفة للجميع معـرفة فـطرية[2] ولـذا راح كثير من الكتـاب يفسرون ما كـان يعنيه لـوك بهؤلاء الناس ـ فيقـول فـون هيرتلج Von Hertling إن لوك كـان يقصد بعض أفـلاطونيي كمـبردج حينـما تكلم عن مؤيدي فـطرية المعـرفة[3] مستشهـداً على ذلـك بـأن بعض أفـلاطونيي كمـبردج كانُـوا يعتقدون في فـطريـة المعـرفـة مثـل المبادىء الفطرية التي ذكرها هنري مور[4] واعتبروا معرفتنا بهـا معرفـة أوليـة وأنها كانت هي ذاتهـا المبادىء التي نـاقشها لـوك فيها بعـد مبيناً فسادها[5].

ويرى جيبسون أن لوك إنما كان يقصد مدرسي الجامعات في ذلك الوقت بهجومـه[6] والدليـل على ذلـك أن هؤلاء وخاصـة الذين حملوا الـتراث المدرسي منهم ودافعـوا عنه كـانوا يعتقـدون أن المعـرفـة تبـدأ بمبادىء أولية Moxims يمكننـا أن نستنتج منهـا بقية الحقـائق استنتاجـاً وأن هذه المبادىء معروفة للناس جميعاً معـرفة فـطرية أوليـة بحيث لا

---

(١) O'connor, D.J; John Locke, P.39.

(٢) Aaron, R.I; John Loke, P.74.

(٣) المرجع السابق ص ٧٦.

(٤) أحد أفلاطونيي كمبردج ـ الذي ذهب في الفصل السابع من كتـابه An Anti-dote ogainst Atheism إلى أن الأفكار الفطرية ـ لا بـل وأن تكون مـوجودة في النفس بالفعـل ولكن بطريقة ضمنية.

(٥) Aaron, R.I; John Locke, P.81.

(٦) المرجع السابق ص ٧٦.

يمكن أن يرقى إليها الشك[١] بينما رأى ڤولتير في رسائله الفلسفية أن لوك لم يكن يقصد سوى ديكارت والديكارتية بهجومه[٢] وخاصة بعد أن نسب ڤولتير إلى ديكارت قوله إن الروح حينما تدخل الجنين عن طريق الأم إنما تحمل معها بعض الحقائق مثل مبدأ الذاتية بالإضافة إلى امتلاكها القدرة على التفكير[٣].

ومن المرجح أن نقد لوك كان موجهاً إلى أفلاطونيي كمبردج وكل من تأثر بالأفلاطونية بالذات إذ أن قوله «بأن الاعتقاد الثابت عند بعض الناس هو أنه توجد في العقل بعض المبادىء والأفكار الأولية ـ كما لو كانت مطبوعة عليه ـ تلقتها الروح منذ وجودها القديم وجاءت بها إلى هذا العالم»[٤]، يتفق تماماً مع ما ذهب إليه أفلاطون في محاورتي «مينون» و «فيرون» ومع نظريته في المثل وفي التذكر.

ومما يؤكد ذلك ما ذهب إليه فندلياند[٥] من أن نقد لوك لدعاة المعرفة كان موجهاً إلى الأفلاطونية الجديدة الإنجليزية أكثر من كونه موجهاً لديكارت والديكارتية وخاصة لمناقشة لوك للمبادىء التي ذهب إليها أفلاطونيو كمبردج واعتقدوا في فطريتها، سواء النظري منها أو العملي مثل المبادىء التي أيد فطريتها هنري مور.

وبعد أن ينتهي لوك من عرض مشكلة المعرفة الفطرية ـ يبدأ في

---

(١) المرجع السابق ص ٨١.

(٢) المرجع السابق ص ٧٧.

(٣) المرجع السابق ص ٧٩.

(٤) Essay, B.I, ch.II, sec, I, P. 12.

(٥) Windelband. W, A History of philosophy. Vol.2.P. 450, (harper torchbook edition, New York, 1958).

مناقشتها باستعراض مختلف الحجج والبراهين التي ذكرت لتأييدها وإثبات صحتها - مبتدئاً بحجة الإجماع General Assent فيقول «إذ ليس هناك شيء مسلّم به أكثر من القول بوجود مبادىء معينة نظرية وعملية - متفق عليها بين جميع أفراد الناس وهم لهذا يزعمون أنها لا بدّ أن تكون انطباعات دائمة تلقتها أرواح الناس وأحضرتها معها إلى هذا العالم»[1].

ويرفض لوك هذه الحجة فيقول «إن هذا الدليل الذي يسوقونه للبرهنة على وجود أفكار فطرية في الإنسان بناء على وجودها عند جميع أفراد الناس واتفاقهم أو إجماعهم عليها ليست صحيحة»[2]. إذ ليست هناك أفكار يتفق عليها كل الناس ويجمعون على صحتها ويضرب لذلك مثلاً ببعض المبادىء التي كانت تعتبر في نظرهم أولية غير مكتسبة وقد لخص لوك هذه المبادىء الأولية في قسمين عملية ونظرية. أما العملية فهي الخاصة بالأخلاق والدين مثل «أنه تجب عبادة الله Codis to be Worshipped وهو أحد مبادىء هيربرت أوف سيثربوري العملية الخامسة التي ذكرها في كتابه «في الحقيقة»[3] وأما النظرية فهي مثل مبدأ الذاتية. ومبدأ عدم التناقض اللذين ذكرهما أرسطو في ميتافيزيقاه ويبدأ لوك بمناقشة المبادىء النظرية مثل أن الشيء هو نفسه دائماً وأنه من المستحيل على الشيء الواحد أن يكون وألا يكون في نفس الوقت على أساس أنها مبادىء أساسية مشهورة متفق عليها من الجميع لدرجة أننا ندهش أحياناً حين يناقشها أحد أو

---

(١) Essay, B.I. ch. II, sec. 2, P. 12.

(٢) Ibid, B. 1 ch. II, sec. 3P. 12.

(٣) Aaron, R.I; John Locke, P. 74.

يتساءل عن مدى صحتها قائلاً «إنني أعتقد أن هذه المبادىء لا تحظى بالموافقة الاجتماعية لأنها ليست معروفة لعدد كبير من الأفراد[1] ويستشهد على ذلك بأن المجانين والأطفال لا يعرفونها[2] وهذا كفيل في نظره لنقض تلك الحجة السابقة ـ إذ كيف لا يدركها هؤلاء ما دامت مطبوعة في عقولهم فيقول «إنه ليبدو لي شيئاً متناقضاً حين أقول إن هناك شيئاً مطبوعاً في العقل وهو في نفس الوقت غير مدرك لأن هذا الطبع Imprinting إن كان يعني شيئاً فلن يعني أكثر من وجود حقائق معينة في العقل بحيث لا بدّ وأن يدركها ويكون بها واعياً لذلك نجد أنه من الصعب علينا أن نفهم أن يكون هناك شيء في العقل مطبوع فيه أو مفطور ـ والعقل في نفس الوقت لا يدركه.

فإذا كان للأطفال والمجانين عقول طبعت عليها هذه الانطباعات فهم لا بدّ أن يدركوها ويوافقوا على صحتها بالضرورة بينما الواقع على خلاف ذلك. لذا نقول أن ليس هناك مثل هذه الانطباعات لأنها إذا لم تكن أفكاراً مطبوعة في العقل بطبيعتها فكيف تكون فطرية؟ وإذا كانت مطبوعة فيه بطبيعتها فكيف تكون غير معروفة؟.

إن قولك إن هناك فكرة مطبوعة في العقل. ثم قولك في نفس الوقت إن العقل جاهل بها جهلاً تاماً ولم يلحظ وجودها أو يلتفت إليها بالمرة معناه أن هذه الفكرة أو هذا الانطباع ليس شيئاً على الإطلاق[3].

---

(١) Essay, B.I, ch. II, sec. 4, P. 13.

(٢) Essay, B I, ch, II, sec. 5, P. 13.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

ثم يعرض لوك لحجة ثانية يذكرها دعاة المعرفة الفطرية الذين يزعمون «أن جميع الناس يعرفون هذه المبادىء ويوافقون عليها حين يبدأون في استخدام العقل. . . وهذا وحده كاف لإثبات فطريتها في نظرهم. . .»[1].

والواقع أن هذه الحجة قريبة الشبه بفكرة القوة والفعل عند أرسطو. فالأفكار في هذا المعنى موجودة بالقوة في عقل الإنسان لذلك لا يكون الطفل مدركاً لها أو واعياً بوجودها وحالما يبدأ الإنسان في استخدام عقله يبدأ في معرفة هذه الأفكار أو المبادىء فيصبح وجودها في العقل بالفعل.

إلا أن لوك يرد عليهم اعتراضهم بقوله إن هذا يعني أحد أمرين:

١ - إما أن الإنسان حالما يبدأ في استخدام عقله فإن هذه الانطباعات المفروض فطريتها تظهر فيعرفها العقل ويلحظ وجودها.

٢ - وإما أن استخدام الناس لعقولهم يساعدهم على اكتشاف هذه المبادىء معروفة معرفة أكيدة لديهم[2].

وهو يرفض كلا الفرضين «لأن عقل الإنسان لا يكتشف تلك المبادىء. وحتى لو كان كذلك فهذا لا يثبت فطريتها[3]» فيقول «لو فرض أن العقل قد اكتشف بعض المبادىء الرياضية الأولية التي يزعمون فطريتها مثل أن الشيء هو هو وأنه لا يساوي إلا نفسه. ثم

---

(١) Ibid, B.I, ch. II, sec. 6, P. 14.
(٢) Ibid, B. I, ch, II. sec. 7, P. 14.
(٣) Ibid, B. I, ch, II, sec, 8, P. 14.

استنتج منها بعض النظريات الرياضية ـ فهذا يعني أن الإنسان قد اكتشف في عقله ما كان مفطوراً فيه من مبادىء ونظريات ما دامت وظيفة العقل على حد زعمهم هي اكتشاف ما كان موجودا فيه من مبادىء وما كان مفطوراً فيه من أفكار .

وهذا يعني أن لا فرق هناك ولا اختلاف بين المبادىء الأولية للرياضة وبين النظريات المستنتجة منها حيث إن كل منهما فطري وهذا خطأ كبير لأن الاختلاف واضح بين هذه وتلك[1] » .

وهو بهذا يؤكد خطأ القول بأن اكتشاف العقل لهذه المبادىء يدل على فطريتها بل أنه يؤكد أن العقل لا يكتشفها على الإطلاق «لأن العقل نفسه ليس إلا قدرة أو وظيفة تقوم باستدلال حقائق غير معروفة ـ أي مجهولة ـ من مبادىء أخرى معروفة من قبل فكيف يظن هؤلاء الناس أن استخدام الإنسان لعقله سيؤدي به بالضرورة إلى اكتشاف مبادىء يفترضون فطريتها ؟»[2] .

إن الإنسان حين يستخدم عقله ويعرف هذه المبادىء والأفكار هو في الواقع يستنتجها استنتاجاً أو يستدل عليها من بعض الأفكار الأخرى .

وبالتالي فلن يكتشف العقل ما كان فيه من قبل وبالتالي فلن تكون هذه الأفكار فطرية فيه[3] .

ومن الواضح أن وجه الاختلاف بين هؤلاء وبين لوك إنما يرجع

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٢) Essay, B. I, ch. II, sec. 9, P. 15.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

إلى فهم كـل منهم لمعنى العقل ووظيفتـه لأنها عندهم الاكتشـاف بينما هي عنده الاستنتاج . هي عندهم اكتشاف مـا كان مـوجوداً فيـه من قبل أولياً مفطوراً بينما هي عند لوك استنتاج أشياء لم تكن معـروفة من أخرى كانت معروفة .

ويدلل لوك على هذا قائلاً من جديد «لأنه إذا كانت هذه المبادىء مطبوعة في الإنسان قبل أن يستخدم عقله فأحد أمرين :

١ ـ إما أن يكون العقل بها عالماً أو جاهلاً ـ فـإذا كان بهـا عارفـاً فباستخدام الإنسان له سيعرف ما كان يعرفه من قبل وهـو في هذا لن يكتشف شيئاً جديداً .

٢ ـ أما إذا كان العقـل بها جـاهلاً ثم عـرفها بعـد ذلك فهـو إما أن :

أ ـ يدل على أنها ليست فطرية لأنه من المستحيل أن تكـون هناك أفكار في عقلي أنا ولا أعرفها .

ب ـ أو يـدل على أن العقـل يعرف هـذه المبادىء ولا يعـرفها في نفس الوقت»[1] وهذا خلف .

وقد أدرك لوك أهميـة تحديـده لمعنى العقل ـ والنتـائج التي تـترتب على ذلك فتراه يقول «إن من يلحظ بشيء من الاهتمام عمليات العقل سوف يجد أن قابلية الإنسان العقلية للموافقة على بعض الحقائق لا ترجع إلى وجود انطباعات فطرية فيه ولا إلى اكتشاف العقل لها حين يبدأ

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

الإنسـان في استخدامـه . إنما تـرجـع إلى وظيفـة العقـل نفسـه وهي مستقلة تماماً عن الفرضين السابقين»[1] .

وكما رفض لوك فطرية المبادىء النظرية رفض كذلك العملي منها[1] ضارباً مثلاً بأحدها وهو مبدأ هيربرت القائل «بأن الله تجب عبادته» مؤكـداً أن فكرة العبـادة ليست فكرة مفـطورة ـ أما فيـما يتعلق بفكـرة الألوهية فيبين أن هناك كثيراً من الأفراد بل والأمم لم تدرك أو لم تصل بعد إلى فكرة الله بل وحتى بين هؤلاء الذين يدركونها ـ نجد أن هنـاك اختلافاً في طبيعة هذه الفكرة فكيف يكون هذا إذا كانت فكـرتنا عن الله مطبوعة في عقول النـاس منذ البـداية ؟ أنـه من المؤكد ألا تكـون هذه الفكرة مفطورة في نفوسنا وبناء عـلى ذلك إذا لم تكن فكـرتنا عن الله مفـطورة فمن غـير المعقـول أن تكـون هنـاك أي أفكـار أخـرى فطرية[3] وعلى ذلك فهذه المبادىء سواء كانت نظرية أو عمليـة ليست مفـطورة في الإنسان . وإلا فهـل يستطيـع أي شخص أن يقول بـأن فكرتي الذاتية والاستحالة impossibility فكرتان مفطورتـان في نفوسنـا هل هما موجودتان في عقول الأطفال أولياً بحيث يسبق وجودهما وجود جميع الأفكار الأخـرى المكتسبة ؟ هـل يستطيـع الطفـل أن يكون أيـة فكرة عن حقيقته الذاتية أو الاستحالة قبل أن يعرف الأبيض والأسود والحلو والمر[4] ؟ إذن من أين جاءتنا هذه الأفكار الموجـودة في عقولنـا

---

(١) Essay, B. I. ch. II. sec. 4, p. 16.

(٢) Ibid, B. I, ch. III, sec. I, P. 26.

(٣) Aaron, R. I. John Locke, P. 74.

(٤) Essay, B I, ch, Iv, sec. 3, P. 42.

والتي بناء عليها أمكننا أن نقول إننا نعرف كذا وكذا ما لم تكن مفطورة في عقولنا ؟

يقول لوك إننا استنتجناها واستدللنا عليها من أفكار أخرى سابقة معروفة لدينا طالما كانت وظيفة العقل هي الاستدلال على حقائق غير معروفة من مبادىء أخرى معروفة من قبل[٢] وهذه نستنتجها من أخرى أسبق وهكذا .

ولكن لا بد وأن تكون هناك بداية لهذا الاستدلال أي لا بد من وجود حقائق أو أفكار تكون بمثابة الحلقة الأولى في هذه السلسلة الطويلة من الاستنتاجات ـ من أين أتت إذن هذه الأفكار التي تبدأ منها معرفتنا ـ إذا لم تكن مفطورة فينا ؟

يذكر لوك صراحة أن أي فكرة تتولد في الذهن إنما ترتد إلى مصدر واحد فقط هو التجربة أو الخبرة Experience[٢] فالإنسان يولد وعقله يشبه الصفحة البيضاء الخالية من أي معان أولية أو أي أفكار فطرية وحالما يبدأ في الإحساس تنتقش عليه الانطباعات الحسية المختلفة . «ويبدأ في تكوين أفكار عنها» وعلى ذلك فالعقل يستمد كل خبراته ومعلوماته من التجربة وبها وحدها لذلك يقول لوك إذا سألنا سائل عن شخص ما «متى بدأ يفكر . فلا بد وأن يكون الجواب حالما بدأ يحس»[٣] .

---

(١) Ibid. B I. ch. II. sec. 9. P. 15.

(٢) Ibid. B II. ch. I. sec. 2 P. 59.

(٣) Ibid. B II. cg. I. sec 23. P. 69.

وعلى ذلك فالإحساس سابق على التفكير وليس هناك شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس .

إلا أن هذا لا يعني أن تكون فلسفته حسية بحتة فهو حين يتكلم عن معرفتنا بالمبادىء النظرية أثناء مناقشته لها واضح جداً أنه لا يعني بهذه المعرفة أن تكون حسية بالمعنى الدقيق[1] . إذن فكيف نفسر التعارض بين رفضه للمعرفة الأولية وبين قوله بأن هناك نوعاً من تلك القضايا سواء كانت فكرية أو لغوية تعرف باسم المبادىء الأولى Maxims خارجة عن نطاق العلم أو البحث العلمي واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى أي دليل أو برهان على صحتها لدرجة أن البعض يعتبرها مبادىء عامة فطرية مسلماً بصحتها[2] بين مقدماته التي توحي بإنكار الفطرية من حيث هي مبدأ فلسفي للمعرفة في الفصل الثاني من الكتاب الأول من «مقالة في العقل البشري» وبين إمكان المعرفة بالنسبة لبعض المبادىء أو البديهيات والقضايا معرفة واضحة بذاتها بحيث لا تحتاج إلى دليل أو برهان . في الفصل السابع من الكتاب الرابع من «مقالة في العقل البشري» يمكن تفسير ذلك في ضوء فهمنا لمعنى فكرة الأولية Upriori عند لوك فهو يرفض رفضاً باتاً كل معرفة أولية بمعنى أن تكون موجودة في عقولنا أو مطبوعة عليها قبل أن نولد أو تكون سابقة على التجربة الحسية إذ العقل في نظره صفحة بيضاء ساعة الميلاد ليس فيه أي معرفة سابقة إنما معنى هذه الأولية هي أن هناك بعض المبادىء أو البديهيات التي يدرك العقل وضوحها وصدقها

---

(١) Aaron, R. I; John Loke, P. 84.

(٢) Essay, B. IV. ch. IX, sec. 2. P. 527.

(٣) Ibid, BIV, ch. VII, sec. I, P. 505.

إمـا بالحـدس أو البرهـان وضوحـاً يجعل النـاس تظن أنها مفـطورة في العقل مثل فكرة الذاتيـة التي يعتبرهـا لوك مبـدأ أساسيـاً تعتمد عليـه جميع العمليات العقلية بل هي أول عملية يقوم بها العقل حالما يصبح مزوداً بأي أحساسات أو أفكار[1] .

وعلى ذلك فإنكار لوك لمعنى الفطرية ـ ينصب على المبادىء نفسها لا على قدارتنا العقلية بمعنى أن هذه المبادىء الأولية ليست فطريـة فينا وليست أوليـة بمعنى أسبقيتها عـلى التجربـة الحسيـة ولكنهـا صحيحـة وواضحة بذاتها ويقينية لأن عندنا من القدرات العقلية مـا يسمح لنـا بإدراكها بهذا الوضوح والتسليم بها بهذه الدرجة من اليقين سـواء عن طريق الحدس أو البرهان[2] .

وأهمية رفض لوك لفطرية المعرفة أنه جعلها قاعدة عامة يبـدأ منها ليبني ما هو قـائم على الحق والصـواب فكانت بـذلك أول معـول من معـاول هدم الاتجـاهات المثـالية والعقليـة القديمـة وأصبحت في نفس الـوقت تدعيـماً لأول درجة من درجـات سلم الاتجاهـات التجـريبيـة والحسية والواقعية الجديدة .

فـالبدايـة التي بدأ بهـا لوك بـرفضه لفـطرية المعـرفة وقـولـه بـأن الإحســاس سابق عـلى التفكير هي نفس البـداية التي بـدأ بهـا هيـوم فلسفتـه في كتابـه «مقالـة في الطبيعـة الإنسانيـة Atreatise of Human Nature» ورده لجميع الأفكار الموجودة في العقل إلى الإحساس[3] وهو

---

(١) Ibid. B IV, ch. I, sec. 4 P. 424.

(٢) Aaron, R. I; John Locke, P. 71.

(٣) David hume, A treatise of human Nature, B. 1, Part I, sec. 1, P. II (Every man, library N° 548) Vol. 1.

في هذا الصدد يقول «إن إدراكات العقل البشري بأسرها تنحل من تلقاء نفسها إلى نوعين متميز أحدهما عن الآخر وسأطلق عليها لفظتي انطباعات وأفكار وينحصر الفرق بين هذين النوعين في درجات القوة والحيوية اللتين يطبعان بها العقل ويلتمسان بهما الطريق إلى فكرنا أو شعورنا فأما الإدراكات التي ترد إلينا بأبلغ القوة والعنف فلنا أن نسميها «الانطباعات» واني لأجمع تحت هذا الإسم قل إحساساتنا وعواطفنا وانفعالاتنا عندما تظهر للمرة الأولى في النفس وأما لفظة الأفكار فاعني بها ما يكون في التفكير والتدليل العقلي من صور خافتة لتلك الإحساسات والعواطف والانفعالات»[1] .

فإذا لم يكن هناك فرق بين الانطباعات والأفكار إلا في الدرجة والقوة والوضوح فإن الأفكار ترتد في أصلها إلى الانطباعات الحسية وعلى ذلك فهيوم يرد كل معرفة إلى الإحساس ـ والإحساس فقط وعلى ذلك فهو يرفض أن تكون هناك في الذهن أية معرفة فطرية سابقة على الإحساس . فإذا كان ذلك كذلك فلن تكون هناك أية معرفة فطرية مطبوعة على العقل منذ القدم ولن تكون هناك مبادىء أولية ضرورية مسلم بصحتها بين جميع الناس مثل قانون الذاتية أو مبدأ العلية إذ لن يكون هناك في العقل إلا ما هو صادر عن الحس والتجربة الحسية .

ب ـ معنى التجربة عند لوك

إذا قلت إن التفاحة فاكهة حمراء مستديرة حلوة الطعم فإن هذا يعني أن هناك في ذهني مجموعة من الأفكار مثل فكرة الاحمرار أو

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود ـ ديفيد هيوم ـ سلسلة نوابغ الفكر الغربي ص ١٧١ القاهرة ١٩٥٨ .

اللون الأحمر التي تنطبق على التفاحة وغيرها كالوردة مثلاً وفكرة الاستدارة التي تنطبق على التفاحة وغيرها كالبرتقالة والكرة مثلاً . فكرة الحلاوة في المذاق التي تنطبق على التفاحة وغيرها كالكمثري والبرتقال .

ويعني كذلك أن هذه الأفكار ارتبطت جميعاً في ذهني حول محور واحد أو جوهر واحد كان هو العامل المشترك في ربط هذه الأفكار أو الصفات بعضها مع بعض في عقلي بحيث أمكنني أن أقول إن التفاحة حمراء مستديرة حلوة الطعم . فإذا ما تساءلنا :

١ ـ هل عرفت أن التفاحة تتصف بتلك الصفات السابقة لأن في ذهني معرفة أولية سابقة عن معنى الاستدارة والحلاوة والاحمرار بحيث إنني حين أدركت التفاحة تذكرت في الحال هذه المعرفة السابقة التي كانت مطبوعة في عقلي والتي تلقتها الروح منذ القدم وأحضرتها معها إلى هذا العالم فأمكنني بناء على هذه المعرفة السابقة أن أصف التفاحة بما كنت أعرف من قبل .

٢ ـ أو أنني عرفت أن التفاحة تتصف بتلك الصفات لأنني حين رأيت الكرة وأدركت لها شكلاً سميته بالشكل المستدير ثم حين رأيت البرتقالة أدركت أن لها نفس الشكل الدائري بحيث إنني حين رأيت التفاحة عرفت أن لها نفس الشكل الذي ينطبق على الكرة والبرتقالة فأطلقته عليها أيضاً وقلت إن التفاحة مستديرة وهكذا بالنسبة لبقية الصفات الأخرى كالاحمرار والحلاوة وغيرها ؟

كانت الاجابة على السؤال الأول بالإيجاب بمثابة تلخيص للاتجاه المثالي الذي أنكره لوك والذي يمكن إيجازه في أن المعرفة قبلية apriori أي غير مستمدة من التجربة الحسية .

بينما يلخص الرد بالإيجاب على السؤال الثاني الاتجاه التجريبي الذي سار فيه لوك والذي يتلخص في أن المعرفة الإنسانية معرفة بعدية aposteriori أي تأتي في مرحلة تالية أو متأخرة عن التجربة الحسية .

والواقع أن أي خبرة في نظره لا بد أن ترتد في أساسها الأول إلى الإحساس وتعتمد اعتماداً مباشراً على التجربة الحسية وهي ليست أكثر من تلقي الانطباعات الحسية ونقلها إلى الصفحة البيضاء أي العقل[1] Tabula rssa فأنا حين أدرك أن أمامي زهرة حمراء مثلاً فإن هذا يعني أنني قد استقبلت عدة انطباعات حسية متتالية مثل شكل ولون ورائحة ودرجة صلابة الزهرة بحيث تجمعت كلها معاً فكونت في ذهني صورة لهذه الزهرة . وشأن العقل في هذا شأن الصفحة البيضاء في نظر لوك . . . مثل هذه الصفحة التي أكتب عليها الآن ـ كانت خالية من كل كتابة ـ ثم كتبت عليها بعض الحروف ولتكن ك . ل . و ووجه الشبه هنا أن هذه الصفحة البيضاء قبل الكتابة عليها تشبه العقل قبل تلقى الانطباعات الحسية . . وهذه الحروف التي كتبتها على الصفحة تشبه الانطباعات الحسية المتتالية المنفصلة التي تنطبع على العقل بفعل الإحساس .

فإذا ارتبطت هذه الحروف المختلفة بعضها مع بعض بطريقة خاصة ولتكن بالشكل الآتي (لوك) أصبحت كلمة لها معنى وهي أنها تدل على جون لوك الفيلسوف الانجليزي الذي ولد سنة ١٦٣٢ وتوفي سنة ١٧٠٤ .

---

(١) Essay, B. II, ch. I. sec. 3, P. 60.

كذلك إذا ارتبطت هذه المعطيات الحسية في العقل بعضها مع بعض . فإن هذا الربط يجعل منها شيئاً مفهوماً له معنى أو صورة ذهنية لها مفهوم واضح .

وكما أن هذه الحروف المختلفة لو ظلت مكتوبة على الصفحة البيضاء بلا رابطة تربطها منفصلة متباعدة لما أدت وظيفتها ولما كان لها معنى معلوم .

وكذلك هذه الانطباعات الحسية المختلفة المتتالية لو ظلت منفصلة متباعدة لما استطعنا أن نكون منها صوراً ذهنية أو أفكاراً وبالتالي لما أدت وظيفتها ولما كان لها معنى مفهوم .

وما قيمة هذه الصفحة البيضاء إذا لم أكتب عليها كلاماً له معنى ؟ ليس لها قيمة لأن قيمتها تتحدد حسب معاني الكلمات التي أكتبها عليها، لا حسب الحروف المتباعدة المنفصلة التي لا تؤلف أي كلمة وبالتالي لا تؤدي أي معنى .

وما قيمة هذه الحروف المنفصلة إذا لم تنتظم فتصبح ألفاظاً لها دلالات ومفهومات ؟ كذلك ما قيمة هذا العقل إذا لم أكون فيه صوراً ذهنية وأفكاراً ؟ ما قيمته إذا كان مجرد إناء تزدحم فيه وتتراكم هذه المعطيات الحسية ؟ ليست له قيمة . لأن قيمته تتحدد حسب الصور الذهنية والأفكار التي أكونها فيه لا حسب الانطباعات الحسية المتباعدة المنفصلة التي لا تكون أي صورة ذهنية أو فكرة . وما قيمة هذه الانطباعات الحسية المنفصلة إذا لم تنتظم فتصبح إدراكاً حسياً له معنى ؟ لا بد وأن تنظم هذه الحروف فتصبح كلمة لها دلالة ولها مفهوم وبالتالي تكون للصفحة المكتوب عليها هذه الكلمة قيمة .

كذلك لا بد وأن تنظم هذه الانطباعات الحسية فتصبح صورة ذهنية أو فكرة لها معنى ولها مفهوم وبالتالي يكون للعقل في هذه الحالة قيمة .

من هذه المقارنات السابقة يتضح أن لوك قد نجح إلى حد كبير في هذا التشبيه إلا أن هناك وجهاً للاختلاف واضحاً بين هذه الصفحة البيضاء وبين العقل . لأن العقل هو الذي كون من هذه الانطباعات الحسية المنفصلة أفكاراً لها معنى بينما لم تقم الصفحة البيضاء بربط هذه الحروف المنفصلة وتجميعها في شكل لفظ له مفهوم .

وهذا معناه أن الصفحة البيضاء وظيفتها مقصورة على الناحية السلبية فقط أي مجرد تلقي واستعداد لاستقبال كل ما يكتب عليها فقط ولذلك فهي مستقبلة . بينما للعقل وظيفة أخرى بالإضافة إلى الناحية السلبية التي يقوم فيها بتلقي الانطباعات الحسية ، وظيفة أخرى إيجابية يقوم فيها بربط هذه الانطباعات الحسية لتكوين صورة ذهنية أو فكرة عن المدركات الحسية .

ولذلك فتشبيه الصفحة البيضاء الذي شبه به لوك عقل الإنسان لا يكون صحيحاً إلا إذا أقصرنا معناه على الناحية السلبية فقط ثم أضفنا إليه فاعلية التفكير .

ولذا فإن أية معرفة لا بد أن تعتمد في نظر لوك على كل من الإحساس والتفكير معاً ولذلك فالتجربة عنده نوعان :

ا ـ تجربة حسية :

تعتمد على الإحساس وتقوم على تلقي الانطباعات الحسية على العقل الذي يشبه الصفحة البيضاء .

ب ـ تجربة باطنية :

وتعتمد على التفكير وتقوم على ربط هذه الإحساسات وتكوين أفكار عنها .

وبهذا يختلف معنى التجربة عند لوك عن معناها عند الفلاسفة الحسيين الذين كانوا يغالون في اتباع النزعة الحسية باعتبار الحواس مصدراً للمعرفة مثل توماس هوبز في انجلترا وكوندياك في فرنسا وغيرهما ممن كانوا يخضعون كل تجربة وخبرة للحواس فقط أما لوك فقد توسع في معناها فجعلها بالإضافة إلى الحس شاملة كذلك للتفكير .

إلا أن توسع لوك في معنى التجربة بهذا الشكل أفضى به إلى القول والاعتراف ببعض المفهومات الميتافيزيقية بالرغم من إنكاره لأغلب مفهومات الاتجاه العقلي وخاصة الأفكار الفطرية والمعرفة الأولية كما ذكرت مثل اعترافه بفكرة الجوهر سواء المادي منه أو الروحي تلك الجواهر التي يفترض وجودها مختلفة وراء المظاهر الخارجية للأشياء والتي لا يمكن إداركها بأي حال بالحس بل بالبرهان العقلي .

ومع ذلك فتلك الأفكار الميتافيزيقة ـ التي ما قال بها لوك إلا لكي يثبت وجود الله ـ كانت ضعيفة بجانب الاتجاه العام السائد في فلسفته «أي الاتجاه التجريبي» فهو وإن كان قد اعترف بصحة وصدق هذه الأفكار إلا أن مدى هذا الصدق لم يكن يبدو مريحاً له إلى حد كبير[1]

---

(١) Russell, B: History of Western philosophy P.633. (London, Allen & unwin, fourth edition 1954).

كما سيتضح ذلك من مناقشة أنواع المعرفة عنده ودرجات اليقين فيها .

٥ ـ تأثير لوك فيمن عاصره أو جاء بعده :

من الاعتبارات التي يجب أن ندخلها في تقديرنا عندما نتحدث عن أهمية فيلسوف ما ، ذلك الأثر الذي يتركه فيمن يأتي بعده من الفلاسفة والمفكرين سواء أكان هذا التأثير إيجابياً فيسير الفكر الجديد في نفس الاتجاه الذي سار فيه الفيلسوف من قبل مثل تأثير سقراط في أفلاطون أم كان هذا الاتجاه عكسياً كأن يصبح الفكر الجديد رد فعل لما ذهب إليه الفيلسوف من نظريات أو لما توصل إليه من نتائج مثل تأثير السوفسطائيين في أفلاطون ومما لا شك فيه أن لوك قد أثر تأثيراً كبيراً في الفكر الفلسفي لا لأنه يعتبر أول من درس مشكلة المعرفة دراسة منفصلة مستقلة وأفرد لها بحثاً خاصاً هو كتابه «محاولة في العقل البشري» بل لتطبيقه المنهج التجريبي على بحثه في مشكلة المعرفة ولذا فهو يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ الفلسفة أعقبته عدة اتجاهات أهمها ثلاثة : اتجاه حسي ، اتجاه عقلي ، اتجاه نقدي ، وسأتناول هذه الأثر الذي تركه لوك فيمن جاء بعده من هذه الزوايا الثلاث :

أولاً : تأثير إيجابي : يتمثل في اتجاه فلسفي تناول تجريبية لوك وعمقها وطورها حتى وصل بها إلى نتائج قد تختلف أحياناً عما ذهب إليه لوك في فلسفته . مثل الفلسفة الحسية عند هيوم وكوندياك التجريبية المتطرفة عند وليم جيمس فلسفة الظاهريين وعند برتراند رسل .

ثانياً : تأثير عكسي : يتمثل في اتجاه فلسفي معارض تناول تجريبية لوك بالنقد منتهياً إلى عقلية متطرفة وسأتناول ليبنتز كممثل لهذه الفلسفة العقلية مقارناً إياه بلوك في ضوء ما بينهما من تشابه أو اختلاف .

ثالثاً : الاتجاه النقدي : حاول أن يوفق بين الاتجاهين المتضادين الاتجاه الحسي من ناحية والعقلي من ناحية أخرى وخير من يمثله كانط بفلسفته المثالية النقدية وسأعقد مقارنة بينه وبين لوك خاصة في تسليم كل منهما بضرورة الاعتماد على الحس والعقل معاً بالنسبة لعملية المعرفة .

أولاً : التأثير الايجابي المباشر .

ويتمثل في :

١ ـ فولتير : الذي تأثر بالاتجاه التجريبي عند كل من لوك ونيوتن معارضاً بذلك فلسفة ديكارت العقلية فأخذ عن الأول منهجه التجريبي وفلسفته التحليلية للعقل الإنساني[١] وأخذ عن الثاني منهجه العلمي وطريقة تفسيره للظواهر الطبيعية ويبدو تأثر فولتير بلوك في ثلاثة مواقف :

١ ـ اقتناعه بضرورة الاتجاه التجريبي الذي يناسب العلم الحديث وخاصة حين ذهب إلى أن كل ما يمكن أن يوجد في العقل الإنساني مرجعه الإحساس[٢] ولذا فالتجربة الحسية هي أصل المعرفة عند فولتير .

---

(١) Paul Janet and Gabriel scaille, histoire de la philosophie P. 1047.

(٢) Hoffding, H; A History of Modern Philisohpy Vol. 2, P. 459 (Dover edittion U.S.A; 1955).

٢ ـ وحيث إن فولتير لا يشك في أن ما هو موجود في العقل إنما يستمد أصله من الإحساس[١] فلا يمكن أن تكون هناك أفكار فطرية موجودة في الذهن قبل التجربة الحسية وهو في هذا متأثر بنظرية لوك في رفضه للأفكار الفطرية معارضاً بذلك ديكارت والفلسفة العقلية .

٣ ـ أنه مثل لوك ـ لم يكن فيلسوفاً حسياً ـ إذ قد آمن ببعض القضايا الميتافيزيقية بالرغم من اتجاهه العلمي التجريبي مثل قوله إن الماهية الحقيقية للأشياء شيء غير معروف فيقول في القاموس الفلسفي «إن الله قد وهبك العقل أيها الإنسان لكي تعدل به من سلوكك وتحسّن به من تصرفك لا لكي تبحث به في ماهية الأشياء التي خلقها[٢]» .

على أساس أن العقل غير قادر على كشفها وهو في هذا متأثر برأي لوك في أن جوهر الأشياء أو ماهيتها الحقيقية شيء غامض مجهول . ولذا فيجب على الإنسان أن يعرف حدود عقله فلا يبحث إلا فيما هو داخل هذه الحدود .

ب ـ كوندياك[٣] : ويبدو تأثير لوك في الفيلسوف الفرنسي الحسي كوندياك واضحاً وخاصة في كتابه «مقالة في أصل المعرفة الإنسانية» الذي ظل فيه مخلصاً لاتجاه لوك التجريبي وأفكاره الفلسفية إلا أنه

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦٠ .

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) يعتبر كوندياك المتوفى عام ١٨٧٠ خير من يمثل الفلسفة الحسية في فرنسا في القرن الثامن عشر وأهم مؤلفاته الإحساس «Traité des sensations» -Essai sur l'origine des Connaissances humaines.

عاد وخالف رأي لوك في كتابه «الإحساس» في اتجاهه التجريبي لأنه أصبح فيه أقرب إلى الناحية الحسية منه إلى النزعة التجريبية وذلك حين أنكر على العقل وظيفته الإيجابية التي قال بها لوك . زاعماً أن كل أفكارنا بل جميع قدراتنا ووظائفها الحيوية تعتمد أساساً على الحس فقط وعلى ذلك فالإحساس هو الأساس الأول في جميع وظائفنا الحيوية[1] .

بركلي وهيوم :

إلا أن تأثير لوك في كوندياك كان أقل أثراً من تأثيره في الفيلسوف الحسي الانجليزي دافيد هيوم (سنة ١٨٠٤) إذ أن الأخير أخذ عن الأول اتجاهه التجريبي وعمل على تطويره حتى وصل به إلى آخر مداه بلا تحفظ ولا تقييد[2] فهو يسير في كتابه «رسالة في الطبيعة البشرية»[3] في نفس الطريق الذي سار فيه لوك من قبل في «مقالة في العقل البشري» من حيث رفضه لكل معرفة فطرية أولية قائلاً إن أية معرفة تعتمد أساساً على التجربة إلا أن معنى التجربة عند هيوم أضيق بكثير من معناها عند لوك لأنه اعترف بجانبها الحسي فقط وأهمل جانبها العقلي الذي اعترف به لوك وأنكره عليه كوندياك من قبل لذلك فهيوم ينكر أن يكون للعقل نشاط إيجابي لأن وظيفته مقصورة على مجرد تلقي الانطباعات الحسية التي وصلت إليه من الخارج إذ أن الانطباعات تؤثر في الذهن فتنطبع صورها فيه فإن كان هذا الانطباع قوياً سميت إحساساً وإن كان ضعيفاً بمرور الوقت مثلاً سميت أفكاراً إذ ان

---

(١) Paul Janet & Gabriel Seaille Histoire de la philosophie, PP. 1048 1049.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤.

(٣) A treatise of Human Nature, 1738.

الفكرة إدراك ضعيف عند هيوم[1] وهو في هـذا يخالف لـوك أما كيف تتم المعرفة عنده فذلك يتوقف على قوانـين تداعي المعـاني التي تترابط بناء عليها آلياً الانطباعات الموجودة في الذهن[2] ولذلك فهيوم ينكر أفكاراً عن الجواهر التي ذكرها لوك قائلاً «إنه لا يمكن أن يكون هنـاك شيء نسميه بالجوهر بحيث يختفي وراء المظاهر الحسيـة التي تؤدي إلى تكوين الانطباعات في أذهـاننا» وهي نفس النتيجـة التي توصـل إليها. بركلي بالنسبة للجوهر المادي ويبدو أثر لوك في بركلي وهيوم كبيراً حين رد جميـع أفكارنـا سواء البسيط منهـا أو المركب إلى الإحسـاس مـردّداً نفس العبـارة الشهـيرة «أن لا شيء في العقـل مـا لم يكن من قبـل في الإحساس» إذ أن بركلي سار على نهج لوك فرد المعرفة الإنسانية كذلك إلى مجمـوعـة من الإحسـاسـات لكن بمعنى أن الشيء الخـارجي ليس سوى مجموعة من الإحساسات تعرضها علينا التجربة[3].

وهذا هو ما يفرقـه عن لوك فـالأشياء الخـارجية بـالنسبة للوك أو الموضوعات الحسية موجودة في الخـارج ولذلـك فنحن ندركهـا ونكون بناء على إحسـاساتنـا بها أفكـاراً بسيطة بينـما الأمر عـلى خلاف ذلـك بالنسبة لبركلي. إذ أن الأشياء الخارجية موجودة لأننا ندركها[4] وذلك لأننـا لا ندرك بحـواسنا الأشيـاء ذاتها بـل ندرك صفـاتها أو كيفيـاتهـا كـالألوان والأصـوات وهذه كلهـا عند بـركـلي عقليـة أو مـوجـودة في

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود ـ ديفيد هيوم ـ سلسلة نوابغ الفكر الغربي رقم ٧. القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٥.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ـ القاهرة ١٩٤٩ ص ١٦٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٠.

(٤) 115Jessop, T E, benkeleg-philosophical writings, P. 50 London 1952. مجموعة نيلسون.

العقل[1] ولذا فالموجودات الخارجية أي موضوعات الحس ليست سوى هذه المدركات Perceptions أو الأفكار الموجودة في الذهن.[2] وبناء على ذلك فلا يمكن أن يكون هناك محل لوجود فكرة للجوهر المادي الذي لا يمكن إدراكه وهو في هذا الصدد يقول : «إن الشيء الذي ننكر وجوده تماماً هو ما يسميه الفلاسفة باسم الجوهر المادي أو الجسمي»[3] ويؤكد هذا المعنى على لسان فيلونوس قائلاً «إنه لا يوجد أبداً مثل ذلك الشيء الذي يسمونه بالجوهر المادي»[4] طالما كان هذا الجوهر لا يمكن إدراكه.[5] وطالما كان الوجود متوقفاً على الإدراك بالنسبة لبركلي.

إلا أن بركلي يتفق مع لوك في أنه لم ينكر وجود الجوهر الروحي بل أثبته وأكد وجوده كعلة لوجود أفكارنا.

إلا أن هيوم يرفض ذلك الرأي ويقول إن ذاتية النفس أو جوهريتها شيء وهمي ويشرح ذلك قائلاً «أما عن نفسي - فإنني ما توغلت في هذا الذي أسميه (نفسي) توغلاً أحاول أن أكون على صلة مباشرة بها - فلا أراني إلا عاثراً على هذا الادراك الجزئي أو ذلك كأن

---

(١) Russell, B. A History of Western Philosophy V, P. 677.

(٢) Berkeley, G, A treatise concerning the principles of Human Knowledge (in Nelson's edition: Perkeley-philosophical writings) Part I, sec. 34, P.66.

(٣) Ibid, Part I, sec. 35, P.66.

(٤) Berkeley, G; three dialogues between hylas and philonous, First dialogue, P. 117.

(مجموعة نلسون - بركلي كتاباته الفلسفية).

(٥) Berkeley, G; A treatise concerning the principles Human knowledge, part I, sec 18, P. 57.

أقع على إدراك الحرارة والبرودة أوالنـور والظل أو الحب والكـراهية أو الألم والـلذة ولم أستـطع قط أن أمـسـك بنـفسي في أيـة لحـظة من اللحظات دون أن تكون هناك حالة إدراكية معينـة ثم لم أستطع أبـداً أن ألحظ في نفسي إلا تلك الحـالة الادراكيـة وحـدها فـإذا مـا زالت إدراكـاتي لفترة معينـة كما يحـدث مثلاً في حـالة النـوم العميق فإنني لا أكون عندئذ على وعي بنفسي حتى ليمكن حقاً أن يقال عني إني لست موجوداً ثم لو زالت كل إدراكاتي بالموت بحيث لا يعود في مستـطاعي أن أفـكـر أو أن ألمس أو أن أبصر أو أن أحب أو أكـره بـعـد تحلل جسدي فإنني عندئذ أكون قد محيت محواً كامـلاً[1] فإذا زعم لي زاعم بعد هذا أنه يختلف معي في الرأي وأنه يستطيع أن يجد لـه نفساً غـير الإدراكات الجزئية التي تعرض له فإنني أعترف بأنني عـاجز عن المضي معه في حجاج عقلي وكل ما أسلم به له هو أنه قد يكون على صـواب كما قد أكون أنا على صواب وأننـا مختلفان جـوهريـاً في هذا المـوضوع وأنه قد يكون مدركاً لشيء متصل الـوجود بسيط التكـوين يقول عنـه إنــه نفسـه ـ أمــا أنـا فلست أشــك في أنني لا اجـد عنــدي شيئاً كهذا»[2] .

وعلى ذلك فالموضوعات الحسية ليست سوى مجموعة أو حزمة من الكيفيات المحسوسة طالما ليس هناك جـوهر مـادي وكذلـك فالعقـل ليس سوى مجموعـة أو حزمـة من المدركـات طالما ليس هناك جـوهر روحي أو نفسي[3] .

---

(1) Ibid, B I. part IV, P. 239.

(2) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

(3) Basson A. H; David Hume, P. 136 (London, 1958).

وهيوم برفضه لفكرة الجوهر سواء المادي منه أو الروحي يعتبر في الواقع من أكبر الدعاة للمذهب الظاهري[1] ولم يكن ذلك كله من هيوم إلا تطويراً للاتجاه التجريبي ودافعاً له إلى آخر الطريق[2] فكمل بذلك تجريبية لوك إن لم يكن قد صفاها مما يشوبها من أدران ميتافيزيقية ولذلك يمكننا أن نقول بحق مع جرين T.H.Green إن فلسفة هيوم هي دون نزاع عن التجريبية المتطرفة عند وليم جيمس .

د ـ برتراند رسل : ويعتبر رسل خير من يمثل الاتجاه الظاهري في الفلسفة التجريبية الحديثة من حيث هي امتداد للتجريبية الانجليزية التي بدأهافرنسيس بيكون وجون لوك مطوّراً اياها إلى نوع من التحليل يرد موضوعات الفلسفة إلى الأوليات البسيطة التي تتألف منها ـ حتى لا تتعدد الكائنات التي نفترض وجودها كمقومات للعالم ـ وذلك بحذف ما لا تستدعيه الضرورة إلى أن تنتهي إلى الحد الأدنى من المقومات التي لا بد من افتراضها لنفسر بها العالم[3] معتمداً في ذلك على مبدأ وليم الأوكامي المعروف بنصل أوكام Occum's Pazor والقائل « إنه لا يجوز لنا أن نكثر من الكائنات بغير ضرورة تدعو إلى ذلك »[4] .

ومن هذه الكائنات الميتافيزيقية الواجب حذفها بالنسبة لرسل لاستحالة وقوعها في الخبرة المباشرة ـ تلك العناصر التي افترض

(١) Paul Janet & Gabriel Seailes, Histoire de la philosophie, P. 1945.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه. دكتور محمد فتحي الشنيطي ـ فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ص ٣٨.

(٣) دكتور زكي نجيب محمود ـ برتراند رسل، سلسلة نوابغ الفكر الغربي رقم ٢ القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٠.

(٤) المرجع السابق الموضع نفسه.

الفلاسفة أنها قائمة في الأشياء لتلتف حولها ظواهـر تلك الأشياء والتي تعتبر بمثابة الحقيقة الثابتة للأشياء في مقابل ظواهرها المتغيرة .

وتـطبيقـاً لمبـدأ أوكـام يـرى رسـل الاكتفـاء في تفسـيره للعـالم بمجمـوعات ظـواهـره مستغنيـاً عن العنصر أو الجـوهـر أو النـواة التي يفـرض وجـودهـا في كـل شيء «ليسهـل تصـوره (شيئـاً) متصـل الوجود»[1] .

مثلاً إذا قلت «إن هناك منضـدة أمامي ـ وأفتـرض فيها أنها شيء مادي على درجة تزيد أو تقل من الثبات والدوام فهي اليوم ما كـانت بـالأمس وما ستكـون غداً ثم تسـاءلت عما يـأتيني منها في تيـار خبرتي المباشرة سأجـد أن كل مـا يأتيني منهـا لمعات مختلفـة من اللون تختلف درجـة لمعانها بـاختلاف الضـوء الساقط عليهـا وباختـلاف وقفتي منها ودرجات من الصلابة أحسها حـين أضغطهـا بأصـابعي ودرجات من الصوت أسمعها إذا ما نقرتها بيدي أو بغيرها وهكذا . . إلى آخر هذه المعطيات الحسية التي تأتيني من المنضدة في خبرتي المبـاشرة متتابعـة في مجمـوعات تختلف بعضهـا عن بعض كثيـراً وقليـلاً»[2] والتي افـترض الفـلاسفـة أن وراءهـا جـوهـراً خفيـاً مجهـولاً يعتـبر بمثـابـة الـركيـزة (Substratum) التي ترتكز عليها صفات الأشياء أو مظاهرها[3] فـإذا ما تساءلنا عن معنى المنضدة عند رسل تطبيقاً لنصل أوكـام فلن نجدهـا سوى ظاهرتها الحسيـة تتجمع في مجمـوعات لا يـربطهـا رباط سـوى

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦.
(٢) المرجع السابق ص ٧٥.
(٣) دكتور زكي نجيب محمود نحو فلسفة علمية طبعة أولى ١٩٥٨ ص ٢٤٤ .

(وجهة النظر) إليها[1] وهو مضطر إلى الاكتفاء بهذه الظاهرات ما دام يحدد نفسه بحدود خبرته المباشرة لأن هذه الظاهرات وحدها هي التي تجيء عن طريق الخبرة المباشرة[2] وكما ذهب رسل إلى استبعاد فكرة الجوهر المادي انتهى إلى نفس النتيجة بالنسبة للجوهر الروحي أو الذات الإنسانية التي يعتبرها فرضاً لا ضرورة له ما دام التزامنا بالمعرفة اليقينية يقتضينا أن نقف عند الخبرة الحسية المباشرة وليس في هذه الخبرة المباشرة (ذات) بل كلها معطيات حسية تأتينا من الخارج[3] دون عنصر أو جوهر نفرض وجوده داخل كيان الإنسان ليمسك تلك الظاهرات الجزئية في فرد واحد له وجود متصل ثابت إذ أن نصل أوكام الذي نبتر به الكائنات الزائدة التي نسرف في افتراضها يقتضي التخليص من هذه الفروض التي ليس لها ضرورة منطقية تقتضيها[4] وهي نفس النتيجة التي توصل إليها تقريباً هيوم من قبل بإنكاره لفكرة الجوهر ، وذلك نتيجة لتطوير البداية التجريبية التي بدأ بها لوك تطويراً دفع بها إلى نتائج تتفق مع المقدمات التجريبية وخير من يمثل نهاية الطريق التجريبي الذي بدأه لوك هو وليم جيمس.

هـ ـ وليم جيمس : فكما كانت الفلسفة التجريبية الحديثة امتداداً للتجريبية الانجليزية وخاصة عند لوك كذلك يمكننا اعتبار الفلسفة التجريبية المتطرفة امتداداً طور فيه وليم جيمس التجريبية

---

(١) Russell, B; the Analysis of Mind, P. 98(London 1952, 5 the impression, Unwin edition).

(٢) دكتور زكي نجيب محمود ـ برتراند رسل ص ٧٦.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧.

(٤) المرجع السابق ص ٧٦.

الانجليزية تطويراً اتفق فيه معها في المقدمات إلا أنه اختلف عنها في النتائج .

فالتجريبية المتطرفة تذهب إلى أن كل مناقشة فلسفية يجب أن تنحصر في موضوعات مما يقع في الخبرة البشرية[1] .

حقيقة إنه قد يكون في الكون ما لا يقع للناس في خبراتهم لكن حديثنا عنه عندئذ يصبح بغير معنى ولذا فوليم جيمس لا يدعى أن وجود الشيء متوقف على خبرتنا به بل يذهب إلى أن الشيء لا يكون مفهوماً لنا أو ذا دلالة في حديثنا عنه إلا إذا كان جزءاً فعلياً أو ممكناً من أجزاء الخبرة الإنسانية وهو لو كان قد توقف عند هذا الحد لكان على اتفاق مع التجريبية الانجليزية لأنهم يرون أن ما يستطاع معرفته هو الذي يقع في حدود خبرات[2] الإنسان إلا أنه لا يقف عند هذا الحد فقط بل يمضي ويقرر حقيقة هي التي ميزت تجريبيته وجعلتها تجريبية متطرفة كما أسماها وهذه الحقيقة أننا حين ندرك أشياء العالم بالخبرة المباشرة فإننا ندرك الأشياء وما يربطها من علاقات فالعلاقات القائمة بين الأشياء هي كالأشياء نفسها مما ندركه في عناصر الموقف الذي يتاح لنا أن ندركه وليست هي كما كان الظن من صناعة عقولنا[3] ولا هي شيء خارج عن طبيعة الموقف جاءه من أعلى بل هي جزء منه لا يتجزأ يدركه الإنسان أو يدرك الموقف بكل ما فيه من عناصر : أشياء وعلاقات بمعنى أن العلاقات تدرك في الخبرة المباشرة كالأشياء المرتبطة بتلك العلاقات سواء بسواء[4] .

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود حياة الفكر في العالم الجديد ص ١٨٤ .

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٤) المرجع السابق الموضع نفسه.

وهو في هذا يختلف عن لوك إذ أن العلاقة بالنسبة للوك مجرد رابطة ذهنية من صنع العقل وليس لها وجود في الواقع فإذا قلت إن الكتاب فوق المنضدة فليس هناك في الواقع الحسي سوى كتاب ومنضدة فقط بينما لا توجد في الخارج فوق أو تحت أو أعلى أو أسفل .

كما أن العلاقة ليست إلا مجرد صفة تضاف للجوهر إلا أنها لا تكون جزءاً من ماهيته[1] بمعنى أنني إذا قلت إن (أ) والد (ب)، فهذا يعني أن (أ) يتصف بصفة تجعله يرتبط بابنه بعلاقة ما، هي علاقة الأبوة إلا أننا نلاحظ أن (أ) لم يزد عليه شيء ولم تتميز ماهيته عما كانت عليه بعد أن أصبح والداً كما أنها لن تتغير بعد أن يموت ويصبح بلا ابن إذ أن ماهية (أ) هي لم تتغير فإذا ما جاء وليم جيمس ليقول إن الإنسان يدرك العلاقات إدراكاً مباشراً مع الأشياء نفسها المرتبطة بتلك العلاقات يكون قد سار بتجريبيته خطوة أخرى بعد التجريبية الانجليزية وخاصة تجريبية لوك التي قصرت المشاهدة على (الحالات) المتقطعة المتجزئة وحدها ثم جعلت العلاقات التي تربطها تتم في الداخل ولا تأتي مع بقية المدركات من خارج ومن ثم كانت تجريبية وليم جيمس تجريبية متطرفة[2] من كل ما سبق يمكننا القول إن تجريبية لوك كانت مرحلة متوسطة مهدت إلى الاتجاه الحسي عند كوندياك وهيوم كما كانت مرحلة انتقال ضرورية لا بد منها للتمهيد لظهور التجريبية الحديثة والتجريبية المتطرفة في الفلسفة .

---

(١) Essay. B. II. ch. XXV. ecc. 8. P. 236.

(٢) دكتور زكي نجيب محمود ـ حياة الفكر في العالم الجديد ص ١٨٨ .

٦ ـ ثانياً : التأثير العكسي .

وتعتبر فلسفة ليبنتز Leibniz العقلية امتداداً تطورياً للاتجاه العقلي عند ديكارت بقدر ما هي رد فعل مباشر للاتجاه التجريبي الذي بدأه بيكون وطبقه لوك في بحثه في نظرية المعرفة في القرن السابع عشر . ولذلك فقد كان التعارض بين كل من لوك وليبنتز واضحاً في الموضوعات التي تبدو فيها تجريبية لوك ظاهرة وخاصة في الكتابين الأول والثاني من «مقالته في العقل البشري» مثل إنكاره للأفكار الفطرية أو المعرفة الأولية بمعنى أسبقيتها على الإحساس .

إلا أنه من هذا التعارض الموجود بينهما يمكننا أن نلحظ تشابههما أو اتفاقهما بالنسبة لبعض المشكلات الفلسفية مثل فكرة الجوهر وفكرة العلاقات ومعنى المعرفة البرهانية والمجال الذي يمكن استخدامها فيه وهي تقريباً نفس الموضوعات التي تمثل أغلب ميتافيزيقا لوك فقد تناول ليبنتز ذلك الجانب من فلسفة لوك وطوره ونماه بما يتفق ونزعته العقلية هذا ويمكن تلخيص التشابه بينهما في الآتي :

١ ـ في فكرة الجوهر : فلوك يعتبر الجوهر العقلي في حكم الأشياء التي لا يمكن معرفتها unknowable شأنه شأن الجوهر المادي إلا أننا يمكن أن نعرف العقل تجريبياً عن طريق ملاحظة أفكاره وعملياته وتجاربه وعلى ذلك فهو يفرق بين العقل في ذاته ـ أو الجوهر العقلي من ناحية ـ وهو غير معروف وبين وظيفة العقل من ناحية أخرى ـ وهي ما يمكن أن نعرفها عن طريق الملاحظة والخبرة .

وقد أيدّ ليبنتز فكرة الجوهر عند لوك ذاهباً إلى أن القدرة على الادراك هي الصورة الأساسية التي تكون ماهية الجوهر تلك الماهية التي يتضمنها العقل بغض النظر عن محتوياته الشعورية في أية لحظة

وحتى في حالة غياب هذا المضمون الشعوري فإن استمرار الحياة اللاشعورية أو الموجودة في حالة ما قبل الشعور أو ما دونه Sub.Consciousness تؤكد لنا حقيقة الروح[1] وهو بهذا يفرق بين ماهية العقل من جهة وبين المدركات الشعورية أو ما قبل الشعورية التي تعتمد على عملياته ونشاطه من جهة أخرى .

وبالرغم من اتفاق ليبنتز مع لوك في وجود الجوهر إلا أنه يختلف معه في معناه إذ أن الجوهر عند لوك يعتبر بمثابة المحور الذي تستند إليه أو تعتمد عليه محتويات التجربة ومضمونها (أي الصفات الحسية) أما عن ماهية هذا الجوهر أو طبيعته فهذا ما يمسك لوك عن ذكره لأنه يدخل في نظره في نطاق الأشياء المجهولة أو غير المعروفة بينما ينقد ليبنتز موقف لوك قائلاً: «إن الشكوى من جهلنا بطبيعة الجوهر ترجع إلى أننا نطلب نوعاً من المعرفة يسمح به الموضوع الذي نتكلم عنه وذلك لأننا جردنا فكرة الجوهر منذ البداية من كل صفة يمكن أن تحددها ثم بعد ذلك نبحث عن الصفات التي يمكن أن تحدد معناها أو مفهومنا عنها»[2] .

ولذا يرى ليبنتز أنه بدلاً من اعتبار الجوهر شيئاً ساكناً Statically له وجوده الذاتي المستقل يجب أن ننظر إليه على اعتبار أنه شيء ديناميكي Dynamically وعلى أنه مبدأ الفاعلية أو النشاط في الوجود وهذه الفاعلية أو النشاط يمكن أن تتكشف لنا من خلال تجربتنا الداخلية .

وعلى ذلك فبينما يحاول لوك أن يتبين معنى الجوهر من وجهة

---

(١) Gibson, J; Locke's theory of Knowledge, P. 279.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩١ .

النظر التجريبية منتهياً من ذلك إلى أنه شيء لـه وجوده المستقـل بمعنى أنـه قـادر عـلى الـوجـود بـذاتـه perse نجـد أن ليبنـتز نتيجـة لتحليله الميتافيزيقي يعرض لنا فكرة الجوهر على أنـه مبدأ مصـاحب للتجربـة داخل فيها مباطن لها Immanent .

ولذا فليبنتز لا يرى أن فكرته عن الجوهر فكرة فارغة عقيمة مثل التي افـترضها لـوك هي فكـرة خصبـة تعتـبر مصـدراً لعـدد كبـير من الحقائق الأولية الميتافيزيقية[1] كما أن ليبنتز لا يوافق لوك فيما ذهب إليه من تفـرقة بـين الماهيـة الاسمية للجـوهر وبـين ماهيتـه الحقيقية عـلى أسـاس أن ما يمكن معـرفته عن الجـوهر هـو ماهيتـه الإسمية فقط لا الحقيقية قائـلاً إن الشيء لا يمكن إلا أن تكون لـه ماهيـة واحدة فقط مع وجود كثير من التعريفات التي يفسر كل منهـا هذه المـاهية بـدرجة أكـثر أو أقل من الآخـر وكلما تقدم العلم أصبحت هـذه التعـريفـات الإسمية أكثر ملاءمة لذلك الجوهر المعرف[2] .

ب ـ في معنى أفكارنا عن العلاقات : يتفق كـل من ليبنتز ولـوك في قبولهما لمعنى العلاقات لا عـلى أنها موجـودة في الواقـع بين الأشيـاء الطبيعية in rertura natura إنما بمعنى أو وجودها وجود ذهني فقط entia mentalia بحيث تتوقف على نشـاط العقل الـذي يقوم بـالمقارنـة بين الأشيـاء أو الأفكار[3] إلا أن هنـاك فارقـاً بينهما وخـاصة من النـاحيـة الميتافيزيقية فقد ذهب لوك إلى أن العلاقات ليس لها وجـود في الواقـع إذ أن كل ماهو موجود في العالم الخارجي مجرد أشياء ولذا فـالعلاقـات

---

(١) المرجع السابق ـ ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٢ .

ليست منفصلة أو مستقلة عن العقل الإنساني بل موجودة فيه لأنها من صنعه بمعنى أنها مجرد إضافات يضيفها الذهن إلى الجوهر بحيث لا تكون جزءاً من ماهيته[١] .

وهذا ما يذهب إليه ليبنتز على أنه يضيف قائلاً : «إنها لا يمكن أن تكون من صنع العقل نفسه ولأن أساسها موجود في العقل الإلهي - أو العقل الأعلى الذي يجددها جميعاً باستمرار:[٢] . وبذلك ينتهي ليبنتز إلى حل دوجماطيقي لمشكلة العلاقات هو أبعد ما يكون عن فلسفة لوك النقدية وذلك تمشياً مع اتجاهه العام في الفلسفة وهو الاتجاه العقلي الذي يؤمن بفطرية الأفكار . وهذا ما سأتناوله بالتفصيل في الأجزاء التالية .

ج - في المعرفة البرهانية : كما يتفق كل من ليبنتز ولوك في أن البرهان أو (المعرفة البرهانية) لا يجب تطبيقها على العلوم الكمية لأن ميدانه علوم المنطق والأخلاق والميتافيزيقا[٣] هذا من ناحية التشابة أما من ناحية الاختلاف فيمكن تلخيصه فيما يأتي :

١ - في معنى المعرفة : فقد تناول ليبنتز مشكلة المعرفة من الناحية الصورية المنطقية من جهة ومن الناحية الميتافيزيقية من جهة أخرى .

وكان نتيجة لاتجاهه الأول سيره في المنهج المجرد الذي تنادي به الفلسفة الديكارتية العقلية وذلك بقبوله مبدأ عدم التناقض الصوري

---

(١) Essay, B. II, ch. XXV, sec. 8.P. 236.

(٢) Gibson, J; Locke.s theory of knowledge, P. 293.

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٩ .

كأعلى مبدأ تقوم عليه المعرفة العقلية[1] بينما تناول لوك مشكلة المعرفة من الزاوية التجريبية وكان نتيجة لذلك معارضته للفلسفة الديكارتية العقلية وخاصة في إنكاره لفطرية المبادىء الأولية أو المعرفة الفطرية بصفة عامة .

ولذا فالمعرفة عند لوك مكتسبة من التجربة بينما هي ليست كذلك بالنسبة لليبنتز فقد رفض ليبنتز تعريف المعرفة عند لوك الذي جعلها (مجرد إدراك لما بين الأفكار من تشابه أو اختلاف)[2] قائلاً «إننا يمكنا أن نصل إلى المعرفة بالرغم من أننا لا ندرك مثل هذا الاختلاف أو التشابه بين الأفكار بل مجرد الشعور بها دون إدراكها»[3] .

وكان الهدف الذي يسعى إليه ليبنتز من إنكاره لتعريف لوك للمعرفة هو تأكيده لنظريته التي تتفق وما ذهب إليه من فطرية المعرفة ووجود الأفكار والمبادىء الأولية ضمن المحتويات العقلية اللاشعورية أو قبل الشعورية لأن عملية المعرفة عنده تعتبر بمثابة تطور يبدأ من مستوى ما دون أو قبل الشعور حتى يصل إلى أكمل وأتم أنواع المعرفة وهي الحدسية[4] ولم يكن معنى التطور عند ليبنتز مقصوراً على كونه مجرد عملية نمو تظهر فيها أو من خلالها هذه المحتويات إنما هي إحالة ما كان منذ البداية في النفس أو العقل وهو أقل وضوحاً - إلى حالة من التميز والوضوح في المستوى الإدراكي وعلى ذلك فالمعرفة بالنسبة له ليست شيئاً أكثر من عملية إظهار ما كان موجوداً بشكل

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(٢) Essay. B, IV ch. I secs. 2. P. 424.

(٣) نقل جيبون هذا النص عن كتاب ليبنتزNouveaux Essais ص ٣٠١ .

(٤) Gibson, J; Lockes theory of knowled ge, P. 301.

غامض أو غير واضح أو ما كان مختفياً غير مدرك في النفس إظهاره في المجال الشعوري الادراكي بمعنى أنه ليست هناك في عملية المعرفة أية إضافة إلى ما هو أول في النفس ولذا فدرجات المعرفة المختلفة عنده ليست سوى درجات في الوضوح والتمييز التي ندرك بها الأفكار أو ما كان موجوداً في النفس أو العقل من قبل[1] .

وكما رفض ليبنتز تعريف المعرفة عند لوك فقد رفض كذلك ما ذهب إليه لوك من تماثل بين المعرفة واليقين على أساس أن ما أعرفه هو ما أنا على يقين منه وما يقصر عن بلوغ اليقين لا يكون معرفة كما رفض بالتالي النتيجة المترتبة على هذا القول بالفصل بين المعرفة وبين أعلى درجات الاحتمال إذ أن الظن المبني على الاحتمال يجب أن يسمى معرفة أيضاً في نظره وعلى ذلك فيجب أن تكون درجات المعرفة أربعاً بدلاً من الثلاث التي ذهب إليها لوك وهي الحدسية والبرهانية بإضافة درجة رابعة هي المعرفة الاحتمالية[2] .

٢ ـ في فطرية المعرفة: يؤيد ليبنتز نظرية أفلاطون في التذكر Reminiscentia ويرى أن الإنسان عنده إحساس أو شعور سابق بكل أفكارنا المستقلة بمعنى أن جميع الأفكار التي سيعرفها في المستقبل موجودة في النفس بطريقة ما وعلى ذلك فجميع أفكارنا بما فيها إحساستنا لها أصل في نفوسنا أو أرواحنا[3] وهذا ما أنكره لوك وخاصة في نقده للمعرفة الفطرية الأولية السابقة على التجربة والتي أفرد لها الفصل الثاني من الكتاب الأول من «مقالته في العقل

(١) المرجع السابق ص ٣٠٢

(٢) المرجع السابق ص ٣.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٩.

البشري» وقد حاول ليبنتز تفسير فطرية الأفكار والمبادىء مع تجنب الاحراج الذي أظهره لوك حين تساءل كيف يمكن للأفكار أن تكون فطرية ولا يعرفها أو يكون واعياً بها مدركاً لها[1] قائلاً إنه بالرغم من أن هذه المبادىء أو الأفكار لم تكن ماثلة بوضوح في مجال الشعور منذ البداية إلا أننا يمكنا أن نعتبرها بمثابة قدرة كامنة تظهر فيما بعد في المجال الشعوري[2] ولذا فالفطرية في نظره تعتبر مجرد طبيعة أو ميل لتكوين فكرة عن موضوع[3] ولكن إذا كان ذلك كذلك فهل تكون كل الأفكار التي تتكون في العقل لها أصولها الأولية المفطورة فيه أي هل جميع الأفكار فطرية في نظر ليبنتز بهذا المعنى أم أن بعضها فطري والبعض الآخر ليس كذلك ؟

يتلخص موقف ليبنتز تجاه هذا الموضوع في الآتي :

أولاً : أن ميتافيزيقاه والنتيجة المترتبة على مقدماته السابقة تتطلب منه أن يقرر أن معرفة الفرد وخبرته ليست أكثر من تطور ذاتي لطبيعته Sel Fevolution لأن التطور يمكن اعتباره بمثابة العملية التي تكشف ما كان موجوداً في النفس منذ البداية في شكل غامض غير معروف وهذا ما ذهب إليه فعلاً في أول تأملاته الفلسفية المتعلقة برسالة لوك في الفهم الإنساني[4] .

ثانياً : ثم تغير موقفه بعد ذلك وخاصة في كتابه «المقالات الجديدة» الذي فرق فيه بين نوعين من الأفكار :

---

(١) Essay. B I, ch. II. sec. 5, P. 14.

(٢) Gibson, J; Lock's theory of Knowledge, P. 280.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٤) المرجع السابق ص ٢٨١.

ا ـ الأفكار الذهنية Intellectual ideas

ب ـ الأفكار الحسية (الناتجة عن الإحساس) Sensible ideas فالأفكار التأملية والحقائق الضرورية التي تعتمد عليها يجب اعتبارها فطرية تماماً بينما الأفكار الحسية وحقائق الواقع التي تعتمد عليها يجب أن تعتبر نتيجة للتجربة والخبرة وعلى ذلك فهي ليست فطرية[١] .

ويلاحظ ليبنتز أن الأفكار العقلية التأملية قد لا تكون واضحة تماماً وذلك في حالة وجودها في منطقة ما دون أو قبل الشعور الغامضة إلا أنها تصبح واضحة تماماً ومتميزة في حالة انتقالها إلى المستوى الشعوري ولذا فالفكرة الواحدة البسيطة قد تكون غامضة أحياناً واضحة متميزة أحياناً أخرى[٢] ويمثل ليبنتز للمعرفة الفطرية بمعرفة الذات مهاجماً بذلك المبدأ الأرسطي الذي استخدمه لوك في فلسفته والقائل بأنه لا شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس (Nibil est in intellectu quod non Fueritn sensu) وذلك بأن أضاف إليه ما عدا العقل نفسه nisi ipse intellectus ويوضح ذلك بقوله طالما كان العقل في حد ذاته جوهراً متصفاً بصفات الوحدة والذاتية والاستمرار في الزمان. . . إلخ . فإن أفكارنا عن الجوهر والوحدة والذاتية والاستمرار الزمني Duration وأفكار أخرى كثيرة مشابهة يمكن أن يدركها العقل بدون الاعتماد أو الرجوع إلى أي شيء آخر سوى ذاته[٣] .

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٢ .

ويناقش ليبنتز معنى الفطرية مبرهناً عليها بالشكل الآتي :

١ ـ إن ضرورة وجود لبعض الحقائق المعينة برهان في حد ذاته على فطريتها قائلاً إن هذه الحقائق لا يمكن البرهان عليها أو إثباتها بالتجربة لأن التجربة لا تزودنا إلا ببعض الأمثلة الجزئية ـ التي بناء عليها يمكنا أن نصل بالاستقراء إلى بعض العموميات ـ إلا أن هذا الكليات أو العموميات لا يكون صدقها ضرورياً ولذا فهي لا يمكن أن ترتفع إلى مثل هذه الحقائق العامة الضرورية[١] .

٢ ـ ويعرض ليبنتز حجة أخرى لفطرية الأفكار والمبادىء ذاهباً إلى أن هناك من الأفكار ما هو متضمن في كل معرفة تعرض للعقل مهما كان موضوعها ، مثل أفكارنا عن الوجود والإمكان Possibility والذاتية ولذا فهي أفكار فطرية لأنها تدخل في تكوين جميع أفكارنا وعملياتنا العقلية .

حقيقة أن هذه الأفكار قد لا تكون واضحة تماماً إلا أنها موجودة في العقل بحيث يعتمد عليها في تفكيره وتكوينه لأفكاره وقيامه بعملياته وهي ضرورية بالنسبة له كما أن الأعصاب والعضلات ضرورية بالنسبة لعملية المشي .

وعلى ذلك فهي موجودة في العقل حتى ولو لم تكن ماثلة أمامه بوضوح كاف لأنه ليس من السهل تمثلها أمام العقل وهي منفصلة بوضوح وتميز ويشبهها ليبنتز بالمقدمة الكبرى المحذوفة في القياس المضمر التي بالرغم من كونها مختفية غير ظاهرة أو واضحة في

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٣ .

القيـاس . . إلا أن نتيجـة القيـاس لا يمكن أن تتم بـدون الاعتـماد عليهـا[1] . وقد نتـج عن قول ليبنـتز بفطريـة المعرفـة تأييـده للاتجـاه الـديكارتي القـائل إن الـروح دائمـة التفكـير[2] والـذي أنكـره لـوك ونقده[3] وقبله ليبنتز على أنه مبدأ أوّلي وذلك تمشياً مع تفسيره للنشاط الذهني وفي أنه ليس مقصوراً فقط على التفكـير في المدركـات الكامنـة في الذاكرة والتي تمثل المضمون الدائم للمعرفة بالـرغم من أنها ليست ماثلة دائماً أمام العقل . وقد استنتج ليبنتز من ذلك أنه كما أن تجـارب وخـبرات حياتنـا الماضيـة لا تزال مـوجودة في المجـال دون الشعـوري بمعنى أنها ليست ماثلة أمام العقل دائماً فإننا يمكن أن نفـترض أن هذه المنطقة الغامضة (أي مجـال ما دون أو قبـل الشعور) يجب أن تتضمن أشياء أو دلالات مشابهة منذ القدم ولم ترتفع بعد إلى مستـوى الأفكار الشعورية[4] .

ومن المـلاحظ أن ليبنتز قـد اضطر نتيجـة لموقفـه الميتافيـزيقي إلى التـوسع في فكـرته أو تصـوره عن النشاط العقـلي في الإنسان فـالحياة العقلية بالنسبـة لليبنتز لا تقتصر عـلى الجانب الشعـوري أو الإدراكي فقط بل كذلك تمتد إلى حياتنا الشعورية أي الإدراكـات الدقيقـة التي تكون المضمون الأساسي في حياتنا العقلية[5] وهي تقـريباً نفس فكـرة اللاشعور التي تبناها فرويد فيما بعد .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٣) Essay, B. II, ch. I, sec. 10 P. 62.

(٤) Gibson, J; Locke's theory of knowledge, P. 279.

(٥) المرجع السابق ص ٢٧٧ .

ثالثاً : التأثير النقدي (تأثير لوك في كانط)

.يبدو أن أثر لوك في كانط كبيراً إذا قارنا مؤلفات كانط وبصفة خاصة كتاب نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason بكتاب لوك «مقالة في العقل البشري»[1] وخاصة في الاتجاه النقدي الذي رد مضمون المعرفة الإنسانية إلى كل من الحس والعقل معاً لا الحس فقط أو العقل وحده بل كل منهما يكمل الآخر . فكما كانت نقدية لوك موقفاً وسطاً بين النزعة المادية الحسية عند هوبز وجسندي وبين الاتجاه العقلي عند ديكارت كانت نقدية كانط موقفاً وسطاً بين النزعة الحسية عند هيوم وكونديلاك وبين الاتجاه العقلي عند ليبنتز. . إلا أن نقدية لوك كانت تجريبية بينما كانت بالنسبة لكانط مثالية إذ أن التجريبية النقدية Critical Empiricism الممثلة في فلسفة لوك ترد أصل المعرفة إلى التجربة التي تبدأ بالاحساس إلا ان وظيفة العقل في تكوين الأفكار وخاصة الأفكار المركبة تأتي بعد ذلك، طالما لم تكن من قبل في الحس. بينما نقدية كانت تعتبر مثالية Critical Idealism لاعتماد المعرفة على المعقولات الأولية الموجدة في العقل ـ والتي تعتبر بمثابة الإطارات الفكرية التي تصب فيها كل الانطباعات الحسية وهذا ما يفرق لوك عن كانط.

إذ أن المعرفة عند لوك يمكن ردها إلى مجموعة من الأفكار البسيطة التي لم تتكون في العقل إلا بناء على التجربة والخبرة بينما لا يمكن رد المقولات العقلية عند كانط إلى التجربة وإنما كل ما يمكن رده إلى الخبرة والتجربة بالنسبة لكانط هو المادة التي تصب في هذه القوالب أو الإطارات الفكرية ـ أي الانطباعات فقط مما جعل نقدية لوك تجريبية

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

وجعل نقدية كانط مثالية. ويمكن تلخيص أوجه التشابه بين لوك وكانط في الآتي:

أولاً : ا ـ في تناول مشكلة المعرفة بالبحث : إن كلا منهما حين بحث مشكلة المعرفة لم يذهب إلى أن الإنسان قادر على أن يعرف كل شيء بل جعل حدود بحثه مقصورة على ما يمكن أن نعرفه على أساس أن هناك ما لا يمكن معرفته مثل الماهية للجوهر عند لوك أو الشيء في ذاته عند كانط لأنه مجهول غير معروف .

ب ـ إن بحث كل منهما كان متجهاً لبيان فساد وأخطاء الفلسفة الاعتقادية Dogmatism أي الفلسفة التي تهدف إلى بلوغ اليقين سواء عن طريق الحس فقط أو العقل فقط وكذلك خطأ فلسفة الشك[1]

ج ـ إن كلا منهما قرر بأن بحث مشكلة المعرفة يجب أن يكون منفصلاً عن حقيقة الواقع reality وكل ما يتعلق به من افتراضات[2]

ثانياً : في معنى الجوهر : فقد أخذ كانط عن لوك تفرقته بين الخصائص الأولية والثانوية للأشياء وقسمته لها إلى جواهر وأعراض .

فالأعراض في فلسفة لوك هي الظواهر les phenomenes في فلسفة كانط والجواهر في فلسفة لوك هي الشيء في ذاته La chose en soie أو النومين Noumenon في فلسفة كانط[3] وكما أننا ندرك الأعراض عن طريق الحواس في فلسفة لوك فنحن كذلك لا ندرك إلا الظواهر الخارجية للأشياء عند كانط وكما أن ماهية الجوهر الحقيقية

---

(١) دكتور توفيق الطويل مؤسس الفلسفة ص ١٦٥ .

(٢) Gibson, J: Locke's theory of knowledge, P. 312.

(٣) المرجع السابق ص ٣١٣.

مجهولة بالنسبة للوك فنحن كذلك لا يمكن أن نعرف الشيء في ذاته بالنسبة لكانط وكما أن الشيء في ذاته عند كانط يمثل الجوهر المادي عند لوك فقد طبق كانت نفس الفكرة (أي التفرقة بين المظهر والجوهر) على العقل لأننا إذا لاحظنا ما بداخل أنفسنا سنجد أن هناك وراء مظهر الإحساس الداخلي الذي نعرف بواسطته النفس التجريبية Empirical Self سنجد هناك شيئاً جوهرياً لا يمكننا أن نجعل منه موضوعاً لمعرفتنا هو ذلك الجوهر أو النومين Nounenon الذي يمثل أساس إدراكنا ومعرفتنا بأنفسنا .

ولذا فالروح بالنسبة لكانط جوهر ـ بمعنى أنها الأساس المجهول والذي لا يمكن معرفته Umknowable والذي تتضمنه عملياتنا العقلية الشعورية[1] .

وتأثير لوك واضح جداً في هذا الصدد إذ أن كانط يسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه لوك من قبل حين ذهب إلى القول بوجود روحي بناء على وجود الجوهر المادي اللذين لا نعرف شيئاً عن الماهية الحقيقية لأي منهما . ومما هو جدير بالملاحظة أن المعرفة بالمظهر phenomenon عند كانط أو بالإعراض عند لوك بالرغم من أنه لا يمكن اعتبارها معرفة ذاتية لأن أصلها مستمد من الموضوعات الخارجية ـ إلا أنها لا يمكن أن توجد وهي منفصلة عن الوظيفة العقلية (أي عن العقل) أو ذلك النشاط التأليف Synthetis الذي تقوم به الذات لتكوين الأفكار أو المعرفة بالمظهر والذي سيتوقف إذا لم يكن هناك شيء لإدراكه . وقد نتج عن القول بأن العقل يجهل

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٥.

الماهية الحقيقية للجوهر إن أصبح العقل عاجزاً عن معرفة حقيقة الأشياء وعلى ذلك فالفصل بين المعرفة وحقيقة الواقع reality إنما يعتبر محاولة لتأجيل أو تجميد البحث في مشكلة الحقيقة وبالتالي تناول المعرفة من وجهة نظر مجردة عنها تماماً مما أدى بكل من لوك وكانط من بعده إلى التروي في النزعة الدوجماطيقية التي أنكرها من قبل[١] .

ثالثاً : ضرورة الاعتماد على التجربة في المعرفة : كما يبدو تأثير كانط بلوك حين ذهب كلاهما إلى أن كل معرفة تتضمن الاستناد إلى التجربة بالرغم من اختلافهما فيما بعد في تفاصيل هذه التجربة[٢] .

فالمعرفة بالنسبة للوك لا بد أن تستمد جذورها أو ترجع في أصلها إلى التجربة أما كانط فهو يفرق بين ما سماه بالعوامل الخاصة Pure Factors وبين العوامل التجريبية في كل معرفة على أساس أن الأولى لا يمكن أن تستمد أصلها من التجربة وعلى ذلك يجب أن نفهم استناد المعرفة إلى التجربة في ضوء ضرورة تزويد هذه الوظيفة الصورية البحتة بما يملأها من مضمون أو محتوى[٣] على أساس أن هذه المقولات الفطرية أو الإطارات العقلية الصورية الضرورية موجودة في العقل أولياً بحيث تزودها التجربة الحسية التي تملأها أي تزودها بالمحتوى الواقعي أو الانطباعات الحسية التي تصلنا من الخارج[٤] وعلى ذلك فالمعرفة بالنسبة لكانط تبدأ مع التجربة (With)

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٤.
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٠.
(٣) المرجع السابق ص ٣١٤.
(٤) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

بينما تنبع المعرفة من (From) التجربة بالنسبة للوك[1] ويمكن تلخيص أهم نقاط الاختلاف بينهما في :

١ ـ في معنى التجربة : فهي بالنسبة للوك أساس لكل معرفة بينما هي بالنسبة لكانط مجرد مصدر يزود المقولات العقلية الأولية بالانطباعات الحسية التي لا يمكن أن تصبح معرفة واضحة إلا إذا انتظمت في هذه الإطارات العقلية أو المقولات الأولية . ولذا فالمعرفة في نظره تتضمن نوعين من العناصر ـ عناصر أو عوامل خالصة فطرية أولية ضرورية وأخرى تجريبية حسية مستمدة من الحس[2] .

٢ ـ في المعرفة القبلية : فقد ذهب كانط إلى وجود المقولات العقلية الضرورية في الذهن وجوداً أولياً سابقاً على التجربة بينما أنكر لوك كل معرفة سابقة على التجربة على أساس أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس وطالما لا يبدأ الإنسان في نظره التفكير إلا حالما يبدأ في الإحساس[3] .

٣ ـ في معنى الكليات : فلوك يعتبر أن التعميم الموجود في الألفاظ الكلية شيء صناعي ـ لأنه من عمل العقلي ، وليس له وجود في الواقع بمعنى أن كل ما هو عام ليس له ما يشير إليه أو يدل عليه بين الموجودات الطبيعية وعلى ذلك فطبيعة هذه الكليات بصفة عامة ليست أكثر من القدرة على الدلالة على عدد من الجزئيات الموجودة في الواقع والتي يضفي العقل عليها علاقة معينة .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٠ .
(٣) Essay. B. II. ch. I. sec. 23. P. 69.

والباعث الذي يدفع العقل لإضافة مثل هذه العلاقة إلى مجموعة من الجزئيات هو ضرورة البحث عن طريقة أخرى غير إيجاد عدد غير محدود من الأسماء يقابل كل منها فكرة من أفكارنا الجزئية ولذا فهو يلجأ إلى ربط مجموعة من الأفكار الجزئية بعلاقة ما مثل علاقة التشابه لكي يكون منها فكرة كلية واحدة تنطبق وتشمل كل هذه الجزئيات المتشابهة جميعاً[١] .

بينما يرى كانط أن وظيفة العقل أثناء معرفته بالكليات لا تكون فقط من مجرد إضافة الكلى إلى التجربة التي لا تتضمنه أو تجريده منها بل تتوقف على رفع مستوى الخبرة أو التجربة الحسية نفسها وذلك عن طريق التعرف على الكلي السابق وجوده في الذهن أولياً بالرغم من عدم كونه مدركاً[٢] .

وهذا الاتجاه يتفق تماماً مع منهج كانط الذي يبرهن فيه على أن البناء العام Universal structure أو الهيكل الكلي متضمن منطقياً في معرفتنا بالوقائع الجزئية للتجربة الموضوعية وعلى ذلك فالمعطيات الأولية للمعرفة هي الخبرة أو التجربة الواحدة كلها ـ لا الموضوعات الجزئيات المنفصلة المنعزلة الذي ظن لوك أنه يجب البداية منها لأنها غير قادرة بذاتها على أن تكون موضوعات لمعرفتنا على الإطلاق وحيث إن الموضوعات الجزئية لتجربتنا المعرفية تفترض مقدماً وجود البناء العام أو الهيكل الكلي لهذه التجربة أو الخبرة فإن جميع القضايا التي توضح طبيعة هذا البناء المجرد وكل القضايا التي يتوقف وجودها على

(١) Ibid, B, III, ch. III, sec. 2, P. 326.

(٢) Gibson, J; Locke's theory of knowledge, P. 325.

هذا الكلي لا بـد أن تكون قضـايا أوليـة تتصف بالضرورة والعمـومية والشمول[1] .

٧ ـ قائمة بأهم مؤلفات لوك مرتبة ترتيباً زمنياً :

سنة ١٦٧١

1.Draft.A.

وقـد نشرت المسودة الأولى من «المقـالة في العقـل البشري» عـام ١٩٣٦ بعنوان :

An Eary Draft of Locke's Essay, together with excerpts From journals.

edited by, Aaron and Gibb; Oxford, 1936.

2.draft.B.

كما نشرت المسودة الثانية للمقالة عام ١٩٣١ بعنوان

An Essay concerning the Understanding, Knewledge.

opinion and assent.

edited by Benjamin Rund, Harvard 1931.

سنة ١٦٨٩

رسالة في التسامح

3.Epistola de Toerantia ad clarissimum Virum.

وقد ترجم إلى الانجليزية في نفس العام ١٦٨٩ بعنوان

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٦.

A Letter concerning Toleration (translated by W.M. popple, edited by: Awnsham and churchill).

كما كتب لوك رسالتين أخرتين في التسامح ظهرت إحداهما باسم : رسالة ثانية في التسامح

A second Letter concerning Toleration.

طبعة أونشام وتشرشل عام ١٦٩٠
وظهرت الأخرى بعنوان :
رسالة ثالثة في التسامح

A Third Letter For Toleration

طبعة أونشام وتشرشل عام ١٦٩٢ .
كما ظهر جزء من الرسالة الرابعة التي مات قبل أن يكملها في مجموعة المؤلفات التي نشرت بعد وفاته Posthumous Works عام ١٧٠٦

سنة ١٦٩٠
مقالتان في الحكومة المدنية .

4.Two Treatises of Governement

وقد ظهرت لها طبعة ثانية عام ١٦٩٤
سنة ١٦٩٠
مقالة في العقل البشري

5.An Esay concerning Human Understanding

وقد نشر الطبعة الأولى كل من Eliz Holt, Thomas Basett

ثم ظهرت الطبعة الثانية بزيادة بعض الإضافات عام ١٦٩٤ ثم

الطبعة الثالثة عام ١٦٨٩ والرابعة نشرها أونشام وتشرشل عام ١٧٠٠ ثم ظهرت الطبعة الخامسة بإضافات أكثر ونشرها أونشام وتشرشل عام ١٧٠٦

سنة ١٦٩٣

بعض أفكار عن التربية

6.Some Thoughts concerning Education

طبعة أونشام وتشرشل ـ وقد ظهرت طبعته الثانية عام ١٦٩٥

معقولية المسيحية

7.Reasonabless of christianity, as delivered in the scriptares.

طبعة أونشام وتشرشل.

وقد كتب لوك دفاعين عن رأيه في هذا الموضوع وظهر الأول عام ١٦٩٥ بعنوان :

Avindication of the Reasonableness of christianity etc. From Edwards's Reflections وظهر الدفاع الثاني عام ١٩٦٧ بعنوان:

A second vindication of the reasonableness of christianity.

نشرت الكتب التالية للوك في مجموعة المؤلفات التي طبعت بعد وفاته باسم : Posthumous Works of Mr.John Locke

طبعة تشرشل ـ لندن عام ١٧٠٦ وتتضمن :

١ـ في كيف يعمل العقل

1.of the conduct of the understanding

٢ ـ دراسة لرأي مالبرانش في رؤية الأشياء في الله .

2.An Examination of P.Malebranche's opinion of Seeing all things in cod.

٣ ـ بحث في المعجزات

3.A Discourse on Miracles.

٤ ـ جزء من رسالة رابعة في التسامح .

4.part of a fourth Letter on Toleration

٥ ـ ذكريات خاصة بحياة أنتوني أول إيرل لشافتسبري .

5.Memoirs relating to the Life of Anthony, First Earl of shaftesbury

سنة ١٧١٤
الآثار الباقية من جون لوك

6.The Remains of John Locke

طبعة تشرشل ـ لندن ـ ١٧١٤ .

٨ ـ في المعرفة الفطرية

٥ ـ إنها (أي الأفكار) ليست مطبوعة على العقل بطبيعتها لأنها ليست معروفة بالنسبة للأطفال والبلهاء وغيرهم .

أولاً : لأنه من الواضح أن جميع الأطفال والبلهاء ليس لديهم أدنى فهم أو فكر عنها . وهذا النقص كاف لإبطال تلك الموافقة

العامة التي يجب أن تكون ملازمة بالضرورة لكل الحقائق الفطرية : ويبدو لي أنه أقرب إلى التناقض أن نقول بأن هناك حقائق مطبوعة على الروح وهي لا تدركها لأن الطبع إن كان يعني شيئاً ـ فلن يعني أكثر من جعل حقائق معينة شيئاً يمكن إدراكه لأنه يبدو لي أمراً من الصعوبة فهمه أن نطبع شيئاً على العقل بدون إدراك العقل له .

فإذا كان الأطفال والبلهاء أرواح وعقول طبعت عليها هذه الانطباعات فإنهم لا محالة مدركون إياها وبالتالي يعرفون هذه الحقائق ويوافقون عليها وطالما أنهم لا يفعلون ذلك فمن الواضح أنه لا وجود لمثل هذه الانطباعات لأنها إذا لم تكن أفكاراً مطبوعة بطبيعتها فكيف تكون مفطورة ؟ وإذا كانت أفكاراً مطبوعة كيف تكون غير معروفة ؟ إن القول بأن هناك فكرة مطبوعة في العقل ثم نقول في نفس الوقت إن العقل جاهل بها ولم يلحظ وجودها على الإطلاق معناه أن هذا الانطباع ليس شيئاً بالمرة[1]

٩ ـ في الصفات الأولية والثانوية :

٩ ـ الصفات الأولية :

إن الصفات التي تعتبر موجودة في الأجسام هي :

أولاً : تلك التي لا تنفصل إطلاقاً عن الجسم مهما كانت حالته وهي التي تظل موجودة فيه دائماً مهما كانت المتغيرات التي تعتد به يجدها الحس دائماً في كل جزء من أجزاء المادة طالما كان لها حجم يكفي لإدراكها والتي يجدها العقل غير منفصلة عن كل جزء

---

(١) (مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الأول ـ الفصل الثاني ـ الفقرة ٥ ص ١٣).

من أجزاء المادة التي لا نستطيع إدراكها على حدة بالحواس لصغر حجمها : فمثلاً خذ حبة من القمح وقسمها إلى قسمين تجد أن كل جزء ما زالت به صفات الصلابة ، والامتداد والشكل والحركة . قسمها ثانية سنجد أنها ما زالت محتفظة بنفس الصفات واستمر في التقسيم حتى تصبح هذه الأجزاء غير محسوسة فإن كل جزء منها لا بد وأن يكون محتفظاً بكل هذا الصفات .

لأن التقسيم (سواء كان ذلك بواسطة طاحونة أو مدق أو أي جسم آخر يقوم بتحويل هذا الشيء إلى أجزاء غير محسوسة) لا يمكن أن يزيل عن أي جسم صفات الصلابة والامتداد والشكل والحركة إنما يجعل فقط من الجسم الذي كان شيئاً واحداً كتلتين أو أكثر من المادة ـ تنفصل كل منها عن الأخرى وتتميز بحيث تكون جميع هذه الكتل المتميزة بعد التقسيم عدداً معيناً .

وهذه هي ما أسميها بصفات الجسم الأصلية أو الأولية التي تحدث فينا وهذا ما يمكننا ملاحظته فيها أظن الأفكار البسيطة مثل أفكارنا عن الصلابة والإمتداد والشكل والحركة والسكون والعدد .

١٠ ـ الصفات الثانوية :

ثانياً : وهي تلك الصفات ـ التي في حقيقتها ـ ليس لها وجود في الأشياء نفسها بل هي قوى تحدث فينا إحساسات مختلفة بواسطة صفاتها الأولية .

أي بواسطة حجم وشكل وتركيب وحركة أجزائها غير المحسوسة

مثل الألوان والأصوات والطعوم . . وغير ذلك وهذه أسميها بالصفات الثانوية(١) .

النص الثالث

في الجوهر :

٢ ـ فكرتنا عن الجوهر بصفة عامة : ولذا فإن من يختبر نفسه بالنسبة لفكرته عن الجوهر البحت بصفة عامة لن يجد في نفسه إلا افتراضاً فقط لما لا يعرفه كدعامة لهذه الصفات القادرة على أن تحدث فينا الأفكار البسيطة تلك الصفات التي تسمى عادة باسم «الأعراض» .

وإذا سئل شخص ما «ما هو الموضوع الذي يرتبط به اللون أو الوزن»؟ لن يجد ما يقوله سوى «الأجزاء الصلبة الممتدة» فإذا ما سئل «وما هو ذلك الشيء الذي ترتبط به صفتا الصلابة والامتداد» فلن يكون أحسن حالاً من الهندي السابق ذكره الذي رأى أن العامل مرتكز على فيل كبير ولما سئل «وعلى أي شيء يقف الفيل»؟ كانت إجابته : على «سلحفاة كبيرة» وحين اضطر إلى معرفة تلك الركيزة التي تحمل هذه السلحفاة ذات الظهر العريض أجاب بأنها شيء لا يعرفه .

وهكذا فنحن في هذه الحالة كما في الحالات الأخرى التي نستخدم فيها ألفاظاً بدون أن تكون في أذهاننا أفكار واضحة متميزة عنها نتكلم

(١) (مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الثاني ـ الفصل ٨ ـ الفقرة ٩ ١٠ ص ٨٥ ـ ٨٦).

مثل الأطفال حين يسألون عن شيء ما لم يعرفوه من قبل فيجيبون بهذه الإجابة المرضية «إنه شيء ما» تلك الإجابة التي لا تعني في حقيقتها ـ سواء استخدمها الأطفال أو الرجال إلا أنهم لا يعرفون ما هو هذا الشيء وأن هذا الشيء الذي يتظاهرون بمعرفته ويتحدثون عنه ليس لديهم عنه أية فكرة متميزة على الإطلاق ولذا فهم جاهلون به جهلاً تاماً وفي ظلام وعلى ذلك فالفكرة التي نطلق عليها الاسم العام «الجوهر» لن تعبر عن شيء سوى تلك الركيزة المجهولة التي نفترض وجودها لترتكز عليها تلك الصفات التي ندرك أنها موجودة والتي لا يمكن أن نتخيل وجودها «بدون شيء يدعمها» ونحن نسمي هذه الدعامة أو الركيزة باسم «الجوهر» الذي يعني تبعاً للدلالة الحقيقية للكلمة في اللغة الانجليزية الواضحة أنه «ما يقف تحت» أو «ما يدعم»[1].

النص الرابع

المعرفة بالذات

٣ ـ إن معرفتنا بوجودنا معرفة حدسية .

فيما يتعلق بوجودنا فإننا ندركه بدرجة من الوضوح واليقين بحيث لا تحتاج أو تحتمل أي برهان لأنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أوضح لنا من وجودنا فأنا أفكر وأتعقل وأحس بالسرور والألم هل

---

(١) مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الثاني ـ الفصل ٢٣ . فقرة ٢ ص ٢٠٨، ٢٠٩).

يمكن أن تكون أي من هذه (العمليات) أكثر وضـوحاً بـالنسبة لي من وجودي؟ وإذا أنا شككت في جميـع الأشياء الأخـرى فإن هـذا الشك بعينه هو ما يجعلني أدرك وجودي ويكفيني عناء الشك فيه .

لأنني إذا كنت أعرف أنني أشعر بألم ما فمن الواضح أنني مدرك يقيناً لوجودي تماماً مثل إدراكي لوجود الألم الذي أشعر به. أو إذا كنت أعرف أنني أشك فإنني أدرك يقيناً وجود ذلك الشيء الشاك تماماً مثل إدراكي لتلك الفكرة التي أسميها بالشك وعلى ذلك فالخبرة تقنعنا بأن لدينا معرفة حدسية بوجودنا وكذا الإدراك الداخلي الذي لا يخطىء يقنعنا بأننا موجودون فنحن نشعر بوجودنا في كل عملية إحساس أو تعقل أو تفكير وفي هذا الصدد لن تكون معرفتنا قاصرة عن بلوغ أعلى درجات اليقين.

النص الخامس

المعرفة بوجود الله

٣ ـ وهو (أي الإنسان) يعرف كذلك أن اللاموجود ـ لا يمكن أن ينتج أي وجود ولذا فهناك شيء أزلي .

فالإنسان يعـرف باليقـين الحدسي أن الـلاوجود المـطلق لا يمكنه إنتـاج أي وجود حقيقي أكـثر من معرفتـه بأن هـذا اللاوجـود يساوي زاويتين قائمتين فإذا لم يكن الإنسان يعرف أن العدم أو غياب الوجود كله لا يمكن أن يكون مساوياً لزاويتـين قائمتـين فمن المستحيل عليـه أن يعرف أي برهان من براهين أقليدس وعـلى ذلك فنحن إذا عـرفنا أن هنـاك نوعـاً من الوجـود الحقيقي وأن العدم لا يمكنـه أن ينتج أي موجود حقيقي فسيكـون برهـاناً واضحـاً القول بـأنه لا بـد من وجود

شيء ما منذ الأزل طالما أن كل ما هو ليس منذ الأزل له بداية وكل ما له بداية يجب أن يكون ناتجاً عن شيء غيره .

٤ ـ إن الموجود الأبدي يجب أن يكون هو الأكثر قوة يتضح بعد ذلك أن ما يستمد وجوده وبدايته من شيء آخر يجب أن يكون كذلك كل ما فيه وكل ما يتعلق بوجوده من شيء آخر أيضاً فيجب أن تكون جميع ما فيه من قوى متوقفة على نفس المصدر ومستمدة منه ولذا فإن هذا المصدر الأزلي لكل ما هو موجود يجب أن يكون كذلك مصدراً وأصلاً لكل قوة وهكذا فالموجود الأزلي يجب أن يكون كذلك هو الأكثر قوة والأكثر معرفة وعلماً .

ومرة ثانية ـ فالإنسان حين يجد في نفسه هذا الإدراك وهذه المعرفة فإن هذا يجعلنا نخطو خطوة أبعد ونصبح متأكدين من أنه لا يوجد فقط موجود ما بل إن هناك موجوداً عارفاً ذكياً[١] .

النص السادس

الحدود الكلية

٦ ـ كيف تتكون الألفاظ الكلية :

إن الشيء الذي يجب أن ندخله في اعتبارنا بعد ذلك هو كيف تتكون الألفاظ الكلية لأنه طالما كانت كل الأشياء الموجودة جزئية فقط

(١) (مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الرابع ـ الفصل ٨ ـ الفقرة ٣، ٤، ٥ ص ٥٢٨).

فكيف نصل إلى الحدود الكلية أو أين نجد هذه الموجودات الطبيعية الكلية التي من المفروض أن تشير إليها هذه الحدود ؟

إن الألفاظ تصبح كلية عامة بجعلها علامات لأفكار عامة والأفكار تصبح أفكاراً عامة حين نفصل عنها كل ظروف الزمان والمكان وأي أفكار أخرى يمكن أن تحددها وتقصرها على هذا الموجود الجزئي أو ذاك .

وعن طريق هذا التجريد تصبح الفكرة قادرة على أن تمثل أكثر من فرد واحد كل منهم متماثل مع الفكرة المجردة (التي نسميها بالنوع)[1] .

النص السابع

الامتداد الزمني

١ ـ وهكذا فإنه من الواضح فيما أظن أننا يمكننا أن نصل إلى أفكارنا عن الامتداد الزمني ومقاييسه عن طريق هذين الينبوعين الأساسين لكل أنواع المعرفة السالف ذكرها وهما الإحساس والتأمل الذاتي لأنه :

أولاً : بملاحظة ما يجري في عقولنا وكيف تتلاحق الأفكار فيها بطريقة دائمة فيختفي البعض ويبدأ البعض الآخر في الظهور يمكننا أن نصل إلى فكرة التتابع .

(١) (مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الثاني ـ الفصل الثالث فقرة ٦ ص ٣٢٨) .

ثانياً : بملاحظة المسافة أو البعد بين أجزاء هذا التتابع نصل إلى فكرة الاستمرار الزمني .

ثالثاً : بملاحظة ظواهر معينة بواسطة الإحساس تظهر بنظام معين وعلى أبعاد زمانية متساوية نصل إلى أطوال أو مقاييس معينة للامتداد الزمني مثل الدقائق والساعات والأيام والسنوات وغير ذلك.

رابعاً : ولأننا نستطيع تكرار هذه المقاييس الزمنية أو أفكارنا عن الأطوال المذكورة عن الامتداد الزمني في عقولنا كيفما أردنا يمكننا أن نتخيل الامتداد الزمني حيث لا يوجد فيه شيء وهكذا يمكننا أن نتخيل الغد أو السنة القادمة أو السنوات السبع التالية .

خامساً : ولأننا يمكننا تكرار أية فكرة عن طول زمني كالدقيقة أو السنة أو العصر ـ كيفما أردنا ذلك في عقولنا وذلك بأن نضيف الفكرة إلى الأخرى بدون أن نصل إلى حد لهذه الإضافة بحيث نكون أقرب إلى نهاية العدد الذي يمكن أن نضيفه دائماً فإننا نصل إلى فكرة الأبدية مثل الامتداد الزمني الأبدي لأرواحنا في المستقبل ومثل أبدية ذلك الموجود اللامتناهي الواجب الوجود بحكم الضرورة دائماً (أي الله) .

سادساً : ولأننا إذا أدخلنا في اعتبارنا أي جزء من أجزاء هذا الامتداد الزمني اللامتناهي مما يمكن حصره بالمقاييس الفترية يمكننا أن نصل إلى فكرتنا عما نسميه «بالزمن» بصفة عامة[1] .

---

(١) (مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الثاني ـ الفصل ١٤ ـ فقرة ٣٢ ص ١٣٣).

النص الثامن

في المعرفة بصفة عامة :

٢ ـ المعرفة إدراك لما بين فكرتين من اتفاق أو اختلاف ولذا فالمعرفة لا تبدو لي شيئاً أكثر من إدراك الارتباط والاتفاق أو الاختلاف والتنافر بين أفكارنا وهي تقوم على هذا فقط .

وحيث يوجد هذا الإدراك توجد المعرفة أما إذا لم يوجد هذا الإدراك فإننا نقصر عن بلوغ المعرفة دائماً بالرغم من أننا يمكننا أن نتخيل أو نظن أو نعتقد .

إذ ما الذي ندركه حين نعرف أن الأبيض ليس بالأسود أكثر من أن هاتين الفكرتين غير متفقتين ؟

وما الذي نفعله حينما نطمئن أنفسنا إلى أقصى حد بصحة البرهان القائل بأن الزوايا الثلاث لأي مثلث تساوى زاويتين قائمتين ليس من الضروري أن تتفق أو أن تكون غير منفصلة عن فكرتنا الخاصة بزوايا المثلث الثلاث؟

النص التاسع

غايات المجتمع السياسي والحكومة

إذا كان الإنسان حراً بهذه الدرجة في حالة الفطرة كما ذكرنا من

(١) (مقالة في العقل البشري ـ الكتاب الرابع ـ الفصل العاشر ـ الفقرة ٢ ص ٤٢٤).

قبل وإذا كان سيداً مطلقاً على نفسه وممتلكاته مساوياً لأكبر شخص وليس تابعاً لأحد فلماذا يتخلى عن حريته ويخضع نفسه لسيطرة وقيادة أية قوة أخرى؟ من الواضح أن الإجابة على ذلك هي أن الإنسان بالرغم من أنه لديه مثل هذا الحق في حالة الفطرة ، إلا أن استمتاعه به ليس مؤكداً إلى حد كبير وأنه معرض بصفة دائمة لإغارة الآخرين لأنه طالما كان الجميع ملوكاً مثله ـ كل ند له ـ ولم يكن هناك في الأغلب مراقبون حازمون لتحقيق المساواة والعدالة فإن استمتاعه بملكيته الخاصة في هذه الحالة يكون أمراً غير مأمون الجانب أو مضمون إلى حد كبير . وهذا ما جعله راغباً في أن يترك هذه الحالة ـ التي مهما كان فيها حراً إلا أنها مملوءة بالمخاوف والأخطار الدائمة ولم يكن بلا سبب إذن بحثه ورغبته في الانضمام إلى مجتمع ما مع آخرين اتحدوا فعلاً أو يفكرون في الاتحاد من أجل المحافظة المتبادلة على أرواحهم وحرياتهم وأملاكهم التي أسميها باسم عام هو «الملكية»[1] .

١٠ ـ تحليل الفكر عند لوك

تكوين الأفكار :

كان اهتمام لوك كبيراً بتحليل الفكر ورده إلى عناصره الأولى وقد أفرد لهذا الغرض الأبواب الأولى من «مقالة في العقل البشري» .

وحيث إن عقل الانسان في نظره يشبه الصفحة البيضاء الخالية من كل الأفكار العادية عن كل الخصائص والصفات فإن أية فكرة

---

(١) (مقالة في الحكومة المدنية، الفصل التاسع فقرة ١٢٣) ص ١٢٨ في كتاب «الفلاسفة السياسيين نشر ساكس كومينز».

توجد في الذهن إنما ترجع إلى مصدر واحد فقط هو التجربة أو الخبرة Experience فعليها فقط كل معرفة ومها فقط تستمد كل عناصرهـا[1] والتجربة بصفـة عامـة في نظر لـوك تعتمد عـلى الملاحـظة التي تنقسم قسمين :

ا ـ ملاحظة خارجية وموضوعية External and objective

ب ـ مـلاحـظة داخليـة وذاتيـة Internal and subjective الأولى تعتمد على إدراك إنسان للمدركات الحسية الخـارجية المـوضوعيـة بينما الثانية تقوم على ملاحظة الإنسان لعملياته العقلية الـداخلية ولكـل ما يدور في ذهنه من أفكار وانطبـاعات بحيث تكمـل كل منهـا الأخرى فتتم المعرفة .

والملاحظة الخارجية هي الأسبق في نظر لوك «إذ أن أول مصدر يـزود عقولنـا بـالأفكـار هـو مـوضـوعـات الحس فحـواسنـا الـواعيـة بالموضوعات الجزئية المحسوسة والمدركة لها . توصل لعقولنا إحساسات مختلفة متعددة عن الأشياء تبعاً لاختلاف وتعدد الوسائل التي تؤثر بها هذه الأشياء في تلك الحواس[2] ولذلك يمكننا أن نصل إلى تكوين أفكارنا عن جميع الخصائص والصفات المحسوسة مثل اللون والحرارة والبرودة. . . الخ التي نقلتها الحواس إلى عقولنا والتي تعتمد اعتماداً كلياً على حواسنا التي تنتزع تلك الإحساسات وتوصلها لعقولنا هو ما نسميه باسم الإحساس»[3] .

«أمـا المصدر الثـاني الذي يـزود عقولنـا بالأفكـار فهـو إدراكنـا

---

(١) Essay, B. II, ch. I, sec. 2, P. 59.

(٢) Essay, BII, ch, I sec 1, P. 59.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

لعمليات العقل الداخلية تلك العمليات التي تقوم بها النفس حين تفكر وتتأمل في تلك الأفكار التي تكونت في العقل بواسطة الحواس فيغذي العقل بأفكار جديدة لم تأت إلينا من الخارج مثل الادراك الحسي والتفكير والشك والاعتقاد والتعقل والمعرفة والارادة. . إلى آخر مختلف العمليات العقلية الأخرى التي نكون واعين بها مدركين لها ويمكننا ملاحظتها .

وهذه الأفكار على الرغم من كونها ليست إحساساً لأنها لا ترتبط بالموضوعات الخارجية إلا أنها شديدة الشبه به لدرجة أننا نسميها بالحس الداخلي Internal sense وما دامت قد أطلقت على المصدر الأول اسم الحس Sensation فإنني أسمي هذا الثاني باسم التفكير Reflection أو التأمل الذاتي[1]» ثم يستطرد قائلاً : « وهذان المصدران : الأشياء الخارجية من حيث هي موضوعات للحس وعمليات العقل الداخلية من حيث هي موضوعات للتفكير . هما في الواقع الأساس الذي يمكن أن يبدأ به أو يتوقف عليه تكوين أية فكرة .

وعلى هذا الأساس فلا يمكن أن تقوم في العقل أية فكرة ما لم تكن صادرة عن أحد هذين المصدرين السابقين لأن الاحساس بالموضوعات الخارجية يمد العقل بالأفكار عن الخصائص والصفات الجسمية بينما يمدنا العقل بالأفكار عن عملياته الداخلية[2] .

والتفكير يأتي في مرحلة متأخرة عن الاحساس وبالتالي فالأفكار

---

(١) Ibid, BII, ch. I, sec. 4, P. 60.

(٢) Essay, B. II, ch. I sec. 8, P. 60.

التي تتكون في عقولنا بواسطته تأتي في مرحلة متأخرة عن تلك التي يزودنا بها المصدر الأول وذلك لاعتماد التفكير على الانتباه[1] .

ولوك يذكر الانتباه لكي يدلل على أهمية فاعلية العقل أو إيجابيته في تكوين الأفكار الناتجة عن التأمل الباطني أو الذاتي. . لأن مجرد تلقي العقل الانطباعات الحسية من موضوعات الحس في الحس في الخارج ـ لا تظهر إلا إلى جانبه السلبي فقط أما جانبه الإيجابي فيبدو حين يلتفت الانساسن إلى ما يجري بداخل عقله أو نفسه من عمليات مثل التذكر والتخيل والتفكير. . إلخ .

وهذا الالتفات لن يتم بطريقة دقيقة أو صحيحة إلا إذا قام الإنسان بحصر نشاطه الذهني في اتجاه معين مدة من الزمن أي إذا ركز الإنسان انتباهه على ما يجري بداخله حتى يمكنه أن يكون أفكاراً عن هذه العمليات الداخلية . وحيث إن الأفراد يتفاوتون فيما بينهم من حيث مدى الانتباه أي قدرتهم على استيعاب أوسع دائرة ممكنة من الأمور ومن حيث مدة الانتباه أي قدرتهم على حصر الذهن أطول مدة ممكنة من الوقت .

فإنهم سيختلفون بلا شك في نوع وعدد هذه الأفكار التي تتكون في عقولهم نتيجة لملاحظاتهم لعمليات العقل الداخلية ومما هو جدير بالذكر أن نظرة لوك الموضوعية في أسبقية الاحساس على التفكير وتحليله لمعنى هذا التفكير كانت هذه النظرة ذات أثر بالغ في الفلسفة الانجليزية من بعده وخاصة هيوم الذي أنكر مثل لوك وجود الأفكار الفطرية في العقل والذي أرجع أساس المعرفة الانسانية إلى

---

(١) Ibid, B, II, ch. I, sec. 6, P. 62.

التجربة الحسية حين رد أصل أفكارنا إلى الإحساس إذ أن الأفكار عند هيوم هي ما يكون في التفكير والتدليل العقلي من صور خافتة لتلك الإحساسات[1] بل إن المعرفة بأسرها عند هيوم «وإدراكات العقل البشري تنحل من تلقاء نفسها إلى نوعين متميز أحدهما عن الآخر هما الانطباعات والأفكار وينحصر الفرق بين هذين النوعين في درجات القوة والحيوية اللتين يطبعان بهما العقل ويلتمسان بهما الطريق إلى فكرنا وشعورنا»[2] .

فالفكرة عند هيوم هي تلك الصورة الذهنية الخافتة للانطباع الحسي القوي الحي أو هي الانطباع الحسي حين نستعيده فيها بعد باهت اللون خافت الصوت ضعيف الأثر[3] .

فإذا كانت كل فكرة من أفكارنا صورة لانطباعاتنا الحسية أو الشعورية وإذا كان من المستحيل أن نجد بين أفكارنا فكرة واحدة لا يمكن تعقبها إلى الانطباع أو الانطباعات التي أحسسناها وخبرناها استطعنا أن ندرك مدى أهمية التجربة الحسية عند هيوم الذي أكد رد أية فكرة في أصلها إلى الانطباعات الحسية حين قال «إن من حرم حاسة حرم بالتالي الأفكار التي كان يمكن أن تترتب على انطباعات تلك الحاسة المفقودة فالأعمى لا يعرف ما اللون والأصم لا يعرف ما الصوت ورد للأعمى بصره وللأصم سمعه تفتح لها طريقاً جديداً

---

(١) ديفيد هيوم للدكتور زكي نجيب محمود (النص رقم ١ ص ١٧١). سلسلة نوابغ الفكر الغربي رقم ٧ ـ القاهرة ١٩٥٧).

(٢) المرجع السابق (النص رقم ١ ص ١٧١).

(٣) المرجع السابق ص ٣٥.

تنساب إليهما منه أفكار لم يكن لهما بها عهد»[1] وهذا يعني كذلك أولية الإحساس وأسبقيته على التفكير طالما كانت الانطباعات الحسية هي سبب تكوين الأفكار[2] .

١١ ـ أنواع الأفكار :

يعرف لوك الفكرة Idea بأنها موضوع العقل أثناء التفكير أو هي كل ما يمكن أن يقوم في ذهن الإنسان أثناء عملية التفكير[3] بمعنى أنها هي مادته . إذ أن العقل لا يمكنه أن يقوم بوظائفه أو عملياته الفكرية بدون وجود هذه الأفكار ـ التي بقدر ما هي نتيجة عنه ـ هي أساس لقيامه بوظيفته .

فهي أساس لقيام العقل بوظيفته من حيث كونها أفكارا بسيطة simple هي نتيجة عنه من حيث كونها أفكاراً مركبة complex ويوضح لوك الفرق بين الأفكار البسيطة والمركبة بقوله «إن إدراكنا للموضوعات الحسية يتم بناء على تأثير الصفات الموجودة في الأشياء الطبيعية في حواسنا وبالرغم من أن هذه الصفات الحسية توجد في الأشياء الطبيعية وهي في حالة ترابط دائم بحيث تكون متحدة بعضها مع البعض بلا انفصال إلا أن الأفكار التي تحدثها هذه الأشياء في عقولنا تصل إلينا بواسطة الحواس وهي منفصلة غير مترابطة أو متلازمة[4] .

---

(١) David Hume, An Emquiry concerning Human understanding sec II, P. 351 (the speculative philosophers, New York, 1654, saxe commins edition.

(٢) دكتور محمد فتحي الشنيطي فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ص ٩٥ القاهرة ١٩٥٦ .

(٣) Essay, B. I, ch. I, sec. 8, P. 4.

(٤) Ibid, B. II, ch. II, sec, 1, P. 70.

فمثلاً صفات البياض والبرودة والصلابة في الثلج كلها صفات مرتبطة مع بعضها في شيء واحد هو موضوع الحس إذ أن قطعة الثلج باردة في نفس الوقت الذي هي فيه بيضاء وعلى درجة معينة من الصلابة وبالرغم من كون هذه الصفات مترابطة ومتلازمة في الوجود الموضوعي الخارجي إلا أن الانطباعات الحسية التي ترد إلى عقل الإنسان عن طريق حواسه تصل إليه وهي منفصلة غير متلازمة كل إحساس منها يصل مستقلاً ويؤدي إلى تكوين صورة ذهنية أو انطباع عقلي منفصل ومستقل عن الإحساس أو الانطباع الحسي الآخر .

وهذه الانطباعات الحسية المنفصلة حين تنطبع على الذهن فإنه يكون عنها أفكاراً أو صوراً ذهنية واضحة متميزة هي ما يسميها لوك بالأفكار البسيطة التي لا تتكون من أية أفكار أخرى ولا تتضمن في داخلها إلا مظهراً موحداً لإدراك العقل[1] والتي تعتبر بمثابة المادة الأساسية التي تقوم عليها كل معرفة والتي لا يمكن أن يتزود بها العقل إلا بواسطة هذين الطريقين السابقين ـ الإحساس أو التفكير ـ فإذا أمكن للعقل أن يحصل على عدد كبير منها فإن في استطاعته بعد ذلك أن يقوم بعمليات أخرى فيقارن بينها مثلاً أو يربط أو يوحد أو يحكم ويخرج بذلك بأفكار أخرى جديدة نسميها باسم الأفكار المركبة[2] وعلى ذلك فالأفكار المركبة تعتمد اعتماداً مباشراً على الأفكار البسيطة وهذه بدورها تعتمد على الحواس فلو أن حواس الإنسان كانت أربعاً فقط بدلاً من خمس لكان هذا معناه أن أفكارنا ستكون أقل عدداً مما هي

---

(١) المرجع السابق الوضع نفسه.
(٢) المرجع السابق الوضع نفسه.

عليه الآن وذلك نتيجة لاستبعادها الأفكار التي كان يمكن أن تتكون تبعاً لإحساسات هذه الحاسة التي استبعدناها[1] ويمكن توضيح الفرق بين كل من الأفكار البسيطة والمركبة عند لوك بالمثل الآتي:

لنفرض أن أمامي الآن برتقالة لها شكل ولون وطعم ورائحة وعلى درجة معينة من الصلابة. . إلخ كل هذه الصفات موجودة في البرتقالة أثرت في حواسي فأدركت أن لونها أصفر وشكلها دائري ورائحتها جميلة ثم حين أردت أن أتذوقها وجدتها حلوة الطعم كل هذه احساسات أدركتها منفصلة كل إحساس مستقل عن الآخر انطبعت على عقلي فتكونت فيه صور ذهنية وأفكار عن كل هذه المعطيات الحسية هذه الصورة الذهنية الواضحة المتميزة المستقلة المنفصلة هي ما يسميها لوك باسم الأفكار البسيطة (الحسية) .

ثم يبدأ العقل وظيفته الإيجابية فيقارن بين هذه الأفكار البسيطة وغيرها مما سبق أن أدركه فيتذكر ما سبق ويميز بين ما هو موجود فيه من قبل وبين تلك الأفكار الجديدة ليخرج بذلك بنتائج أو أفكار أخرى جديدة في هذه الحالة إذا العقل حاول أن يدرك ما يقوم به من عمليات حول هذه الأفكار سنجد أنه يقوم ببعض العمليات العقلية التي يمكنه أن يكون عنها أفكاراً مثل فكرتنا عن التذكر أو التمييز. . .إلخ . وهي أيضاً عند لوك أفكار بسيطة (أفكار التأمل الذاتي) أما النتيجة التي يصل إليها العقل من مقارنة هذه الأفكار البسيطة الحسية وربطها مثلاً كلها حول فكرة واحدة مثل فكرة الجوهر. . . أي أن البرتقالة شيء بالإضافة إلى هذه الصفات

(١) Essay, B. II, ch. II, sec. 4, P. 10

السابقة . . شيء في ذاتـه يتصف بكونـه أصفر كـروي الشكل أو حلو الطعام أو الـرائحة . . . إلـخ فهذا معنـاه أنني كونت فكـرة مركبـة عن البرتقالة من مجموعة من الأفكار البسيطة السابقة وهي فكرة جديدة لم أصل إليها بواسطة الحواس وإن كنت قد استنتجتها بالعقل عن طريق بعض الأفكار البسيطة التي زودتني بها الحواس . ممـا سبق يتضح أن الأفكـار المركبـة تعتمد أسـاسـاً عـلى الأفكـار البسيـطة إذ أنها بحكم تعريفها مؤلفة أو مركبة منها والأفكـار البسيطة تعتمـد على الإحسـاس والتفكير معاً إلا أنها بحكم تكـوينها في العقـل تعتمد عـلى الإحساس من حيث الأسبقية أو الأولية في العقل .

وعلى ذلك فالإحساس هو الأساس الأول لتكوين الأفكار بكل أنواعها البسيطة منها والمركبة إلا أن هذا ليس معناه أن الخـبرة الحسية هي وحدها أساس تكوين الأفكـار إنما معنـاه أنها هي الأساس الأول ثم يكملها العقل بعد ذلك بوظيفته الايجابية أي التفكير .

وهكـذا يصل لـوك إلى تصنيفه لـلأفكـار فيجعلهـا في قسمـين رئيسيين :

ا ـ أفكـار بسيـطة ـ تتكـون في العقـل بـواسـطة الإحسـاس أو التفكير .

ب ـ أفكار مركبة ـ تتكون في العقل بواسطة التفكير فقط .

١ ـ الأفكار البسيطة :

وقد قسمها لوك إلى أربعة أنواع فرعية[١]

---

(١) Essay, BII, ch. III, sec. 1. 2. 3, PP. 74. 75.

١ ـ أفكـار تصل إلى العقـل بواسـطة حاسـة واحـدة وهي التي تتكـون في العقل نتيجـة للانـطباعـات الحسية التي تصـل إلى الـذهن بـواسـطة إحـدى الحـواس. . . مثـل أفكـارنـا عن الضـوء والألـوان كالأبيض والأحمر والأصفر والأزرق بجميع درجاتها وظلالها كـالأخضر والقرمزي إلى آخر تلك الألوان التي يمكن أن تدركها العـين وكذلـك جميع الأصوات والنغمات التي تدركها الأذن. . . وهكذا بالنسبة لبقيـة الحواس بالإضافة إلى فكرتنا عن الصلابة والبرودة .

٢ ـ أفكار تصل إلى العقل بواسطة أكثر من حاسة مثل أفكارنـا عن المكان والامتداد والشكل والحركـة والسكون فهـذه جميعاً تكـونت نتيجة للانطباعات الحسية التي وصلت إلى الذهن عن طريق حـاستين هما البصر واللمس[١] .

٣ ـ أفكار تتكون في العقل بواسطة التأمل الذاتي مثـل أفكارنـا عن الإرادة والادراك[٢] .

٤ ـ أفكـار تتكون في العقـل بواسـطة الإحساس مضـافـاً إليـه التأمل الذاتي مثل أفكارنا عن القوة والوجود واللذة والألم[٣] .

الأفكار المركبة :

وقد قسمها لوك إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

أفكار مركبة عن الأعراض:

وهي قد تكون :

(١) Essay. BII, chIV. sec. I, P. 76.

(٢) Ibid. BII. ch. VI. sec. I, P. 80.

(٣) Ibid, B.II', ch. VII, sec. 1, P. 80.

ا ـ أعراضاً بسيطة simple modes أي أفكار مركبة نتجت عن قيام العقل بتكرار أو إضافة فكرة بسيطة واحدة أكثر من مرة مثل فكرتنا عن (الدستة) أو العشرين التي نتجت عن تكرار أو إضافة فكرة الواحدة العددية ١٢ مرة أو عشرين مرة(١) .

ب ـ أو أعراضاً مركبة : compound modes أي أفكار مركبة نتجت عن تجميع أو ربط بعض الأفكار البسيطة مختلفة الأنواع بعضها عن بعض مثل فكرتنا عن الجمال التي نتجت عن إضافة أفكارنا البسيطة عن الشكل واللون والجسم والصلابة . . إلخ بعضها مع بعض حول موضوع واحد ممايسبب لي ارتياحاً في النفس(٢) .

٢ ـ أفكار مركبة عن الجواهر :

وهي قد تكون :

ا ـ جواهر مفردة simple substances مثل فكرتنا عن إنسان ما .

ب ـ أو جواهر جمعية collective substances مثل فكرتنا عن الجيش أو الإنسان بصفة عامة(٣) .

٣ ـ أفكار مركبة عن العلاقات :

مثل أفكارنا عن العلية والعلاقات الزمانية والمكانية والذاتية والغيرية(٤) . . إلخ وفيما يلي تفصيل ما أوجزناه .

---

(١) Ibid, B. II, ch. XII, sec. 5. P. 109.

(٢) المرجع السابق نفس الموضع.

(٣) Essay, B. II. ch. XII, sec. 6. P. 109.

(٤) Ibid, B. II, cg. XII, sec. 7, P. 110.

١٢ ـ الأفكار البسيطة:

١ ـ أفكار تتكون في العقل بواسطة حاسة واحدة! مثل أفكارنا عن الألوان والنغمات والأصوات الطعوم والروائح . . . إلخ . التي تتكون في عقولنا نتيجة لإدراك كل حاسة من الحواس للأشياء أو الموجودات الطبيعية.

وحيث إنه من الصعوبة إلى حدٍّ كبير أن نذكر بالتفصيل عدد الأفكار البسيطة المرتبطة بكل حاسة على حدة فإنني سأذكر على سبيل المثال لا الحصر البعض الذي يوضح غرضنا الحالي[١] ويستشهد لوك على ذلك بفكرة الصلابة كمثل لهذا النوع من الأفكار البسيطة التي تتكون في عقولنا نتيجة للإحساس بحاسة واحدة.

فكرة الصلابة:

وهي تتكون نتيجة لحاسة اللمس لأنها تنشأ نتيجة للمقاومة التي نحسها في الجسم حين يحاول أي جسم آخر أن يشغل نفس مكانه[٢] وهي كما يذكر لوك أكثر الأفكار التي نتلقاها عن طريق الحواس ثباتاً ودواماً لأننا سواء تحركنا أو ظللنا ثابتين وفي أي موضع كنا عليه مهما كان هذا الوضع فلا بدّ أن نشعر بأن هناك شيئاً تحتنا يمنعنا من السقوط إلى أسفل[٣]. مثل المقعد الذي أجلس عليه والمكتب الذي أستند إليه والأرض التي أقف عليها وأضع عليها كل هذه الأشياء، كلها في الواقع تزودني أو تمدني بفكرتي عن الصلابة لذلك فهي من

(١) Essay, B. II ch. III, sec. 2, P. 75.

(٢) Ibid, B. II, ch. VI, sec. 1, P. 97.

(٣) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

أكثر الأفكار ارتباطاً بجسم الإنسان[1] لدرجة أنها تكاد تصبح غير ملحوظة لاستمرار وجودها في ذهنه.

وهذه الفكرة بحكم التعريف الذي عرفها به لوك تؤدي بنا إلى التفكير في معنى الإمتداد أي ملء أو شغل مكان ما وذلك لأن معنى الصلابة هو إحساسنا بوجود شيء يشغل حيزاً أو مكاناً معيناً بحيث يكون هو وحده الشاغل لهذا المكان أو الحيز وبحيث يمنع من دخول أي شيء آخر أو اشتراكه معه في نفس هذا المكان[2] وعلى ذلك يجب علينا أن نفرق بين هذا المعنى وبين فكرتنا عن المكان إذ أن المكان هو ما يمكن أن يشغله أي جسم صلب في وقت معين بحيث لو تحرك وتركه أمكن أن يشغله جسم صلب آخر في وقت آخر[3].

ويوضح لوك معنى هذه الفكرة البسيطة. فكرة الصلابة مفرقاً بينها وبين الصلابة كما فرق من قبل بينها وبين الامتداد ـ المكان ـ فيقول «إن الصلابة ليست هي الصلادة Hardness لأن الأولى تعني مجرد الامتداد. في مكان أو شغل حيز معين ـ ويستوي في ذلك قطعة من الحديد أو نقطة من الماء ـ بينما الصلادة أكثر من ذلك تعني تماسك أجزاء المادة بعضها مع بعض لتكون كتلة متماسكة الأجزاء من الصعب تعديلها أو تغيير شكلها. ويوضح ذلك قائلاً: إن كل كلمة من كلمتي صلد Hard ولين Soft إنما هي صفات نسبغها على الأشياء لكي نصف بها العلاقة بين هذه الأشياء وبين أجسامنا بمعنى أن أطلق كلمة صلد على الأشياء التي إذا لمسناها أو ضغطنا عليها بأي جزء من

---

(١) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

(٢) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

(٣) Essay, B. II, ch. VI, sec. 3, P. 77.

أجزاء جسمنا لكي نغير من شكلها فإننا قبل أن نستطيع ذلك التغيير نحس بألم في موضع الضغط يدفعنا لرفع ذلك العضو أو الجزء الضاغط ونستعمل كلمة لين بمعنى أننا يمكننا أن نغير من شكل ذلك الشيء الذي نضغط عليه بطريقة لا تجعلنا نحس بأي ألم على الإطلاق[1] وعلى ذلك ففكرة الصلادة تستلزم فكرة الصلابة وليس العكس لأنه ليس كل ما هو صلب بصلد.

٢ ـ أفكار تتكون في العقل بواسطة أكثر من حاسة:

مثل أفكارنا عن المكان والامتداد والشكل والحركة والسكون كلها تكونت في عقولنا نتيجة لانطباعات حسية وصلت إلى الذهن عن طريق حاستين هما العين واللمس وهذه ما سأتناولها بالتفصيل حين أعرض لرأي لوك في أفكارنا المركبة عن الحالات أو الأعراض Modes وخاصة الأعراض البسيطة.

٣ ـ أفكار تتكون في العقل بواسطة التأمل الذاتي.

وهي تنشأ حين يصبح العقل مزوداً بالأفكار البسيطة التي وصلت عن طريق الحواس ـ فيتجه إلى داخله ينظر في نفسه ويلاحظ عملياته التي يقوم بها حول هذه الأفكار بحيث يجعلها موضوعاً لتأملاته وفي هذه الحالة يبدأ العقل في التزود بأفكار جديدة لم تكن فيه من قبل.

وأهم عمليتين يقوم بهما الإنسان ويمكن لأي شخص أن يلحظهما في نفسه هما الإدراك أو التفكير والإرادة أو الرغبة فالإدراك يعتمد على

---

(١) Essay. B. II. ch. IV, sec. 4, P. 78.

قـدرة عقلية هي الفهم Understanding بينـما تعتمد الـرغبة عـلى قدرة عقلية أخرى هي الإرادة Will[1].

ويذكر لوك بالإضافة إلى هاتين الفكرتين الـرئيستين (أي الإدراك والإرادة) بعض الأفكار الأخرى التي ليست في الـواقع سـوى حالات لتلك الأفكار البسيطة الرئيسية السابقة مثل التذكـر والتمييز والتعقـل والحكم والمعـرفـة والصـــدق[2] وهي تنتـج عن القـــوى أو القـدرات العقلية التي تساعـد الإنسان عـلى التقدم بخـطوات واسعة في المعـرفة وهذه ما سأتناولها بالذكر والتعليق فيها بعد.

٤ ـ أفكار تتكون في العقـل بواسـطة الإحساس والتـأمل الـذاتي معاً، مثل أفكارنا عن اللذة أو السرور وعكسها الألم أو عدم الارتيـاح وكذلك القوة والوجود والوحدة والتتابع فأفكارنا عن اللذة والسرور أو الألم وعدم الارتياح إنما ترتبط بأفكارنا الناتجة عن الإحساس والتفكـير معاً وذلك لأن كل إحساس يأتينا من الخارج وكل فكر يمرّ في ذهننا في الـداخل غـالباً مـا يحدث فينـا إما حـالـة من السرور أو الألم بجميـع درجاتها مثل الرضا والسرور والفرح والسعادة من جهة وعدم الارتياح والتعب والألم والعـذاب والحزن والبؤس من جهـة أخرى[3] ويضرب لوك لذلك مثلاً بالإحساس بالحرارة فيقول إن الحرارة بـدرجة معتـدلة تعطينا الإحســاس بالـدفء وبالتـالي بالارتيـاح أما إذا زادت الحـرارة أصبحنا نشعر بعدم الارتياح أو الألم وهكذا[4].

(١) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.
(٢) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.
(٣) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.
(٤) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

أما أفكارنا عن الوجود والوحدة فإنها تتكون في أذهاننا في كل حالة نحس فيها ونتيجة لكل فكرة تعرض لعقولنا وفي هذا الصدد يقول لوك: «إننا حين نفكر نحس بوجود الأفكار في عقولنا أو في داخلنا تماماً كما نحس بأن هناك أشياء محسوسة خارجة عنا وعلى ذلك فأي موضوع خارجي نحسه وأية فكرة تعرض لعقولنا تستتبع دائماً فكرتنا عن الوجود سواء كان وجوداً داخلياً أو خارجياً.

وسواء كان هذا الوجود شيئاً محسوساً أو فكرة في الذهن فهو يستلزم فكرة الوحدة لأن كل ما يمكن أن نعتبره شيئاً واحداً سواء أكان مدركاً حسياً أم فكرة في الذهن - يوحي إلى الفهم فكرة الوحدة»[1].

وكذلك فكرتنا عن التتابع Succession فمع أنها كثيراً ما تعرض لنا بواسطة الحواس كأن نرى الأشياء أمامنا وهي تتتابع كالموضوعات المتلاحقة التي تعرض أمام العين أو الأنغام المتلاحقة التي نسمعها بآذاننا إلخ. إلا أنها أوضح ما تكون إذا ما لاحظنا عمليات العقل الداخلية إذ أننا إذا نظرنا في داخل أنفسنا سنرى أفكارنا وهي تتلاحق الواحدة تلو الأخرى بلا توقف بل في تتابع مستمر[2].

وكذلك فكرتنا عن القوة Power فهي تتكون في العقل بواسطة الإحساس والتفكير معاً فيقول لوك: «إننا يمكننا أن نلاحظ ذلك في أنفسنا إذ يمكن أن نحرك بعض أجزاء الجسم بعد أن كانت ساكنة في حالة الفرح مثلاً أو السرور مثل القفز أو التصفيق» من هذا يمكن أن

(١) Essay, B. II, ch, VII. sec. 7, P. 82.

(٢) المرجع السابق - الموضع نفسه.

نكون فكرة واضحة من معنى القوة التي نحس بها في أجسامنا وكذلك عن القسوة الموجودة في الأشياء الخارجية حين أرى بحواسي التغيرات أو التأثيرات التي تحدثها الأجسام الطبيعية بعضها في البعض الآخر»[1].

هذا فيما يتعلق بالأفكار البسيطة وقد ذكر لوك بعض الاعتبارات المتعلقة بها أثناء دراسته للموضوع وأفرد لذلك الفصل الثالث عشر من الكتاب الثاني من «مقالة في العقل البشري» تحت عنوان «بعض الاعتبارات المتعلقة بأفكارنا البسيطة» تكلم فيها عن الصفات الموجودة في عقولنا. . . وقد قسم هذه الصفات الحسية إلى صفات أولية وأخرى ثانوية وقوى خالصة.

١ ـ الصفات الأولية:

وهي الصفات الثابتة في الشيء بحيث لا يمكن أن يكون له وجود بدونها أساسية فيه ملازمة له دائماً مهما حدث فيه من تغيرات .... ويضرب لوك مثلاً بالشكل والامتداد والصلابة فيقول: «لنأخذ حبة من القمح ـ قسمها إلى قسمين ستجد أن كل نصف منها ما زال على درجة من الصلابة والامتداد وله شكل معين .... إلخ قسم كل نصف كذلك إلى نصفين ستجد أن كل جزء كذلك ما زال محتفظاً بنفس الصفات السابقة استمر في التقسيم حتى تكاد تصبح هذه الأجزاء غير محسوسة ستجد أنها ما زالت تعمل نفس الصفات السابقة لأن التقسيم لا يمكن أن يزيل صفة الصلابة أو الامتداد عن أي جسم من الأجسام إنما يجعل من الجسم الواحد جسمين منفصلين

---

(١) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

كل منها يحمل نفس الصفات»[1] وعلى ذلك فهذه الصفات ثابتة غير متغيرة أولية بمعنى أنها لا بدّ أن تكون ملازمة للشيء وبحيث لا يمكن تصور الشيء أو وجوده بدونها.

٢ ـ الصفات الثانوية:

وهي ليست أولية في الأشياء بل ثانوية بمعنى أنها ليست أساسية في الشيء ولا داخلة أو ملازمة له ولكنها مجرد قوى Powers تحدث فينا إحساسات مختلفة بواسطة صفاتها الأولية مثل الألوان والأصوات الطعوم الروائح... إلخ وهي ثانوية لأنها يمكن أن توجد في الشيء أولاً وليس من الضروري أن تكون ملازمة له مثل الكرة ـ يمكن أن تكون حمراء أو صفراء ـ فاللون هنا صفة ثانوية لأنه يمكن تصور الكرة باللون الأحمر أو بدونه ولأن وجود الكرة لا يتوقف على كونها حمراء أو غير ذلك بعكس الصفة الأساسية مثل الشكل ـ فالكرة يمكن أن تكون حمراء أو خضراء أو غير ذلك ولكنها لا يمكن إلا أن تكون مستديرة.

فالشكل هنا صفة أولية أساسية ملازمة للشيء بحيث لا يمكن تصوره بدونها.

٣ ـ إلا أنه بجانب هذين النوعين من الصفات أضاف لوك نوعاً ثالثاً هو في الواقع نوع من القوى الخالصة Barely Powers ذكر لوك أنه يمكن إضافتها إلى الصفات الثانوية ويضرب لها مثلاً بالقوة الموجودة في النار قائلاً: إنها تحدث تغييراً في لون الشمع وشكله

---

(١) Essay, B. I ch. I, sec. 8, P. 85.

وصلابته هي صفة من الصفات الموجودة في النار القادرة على إحداث فكرة في ذهني عن الإحساس بالدفء أو الاحتراق»[١].

والتفرقة بين الصفات الأولية والثانوية ليست في الواقع من ابتكار لوك إذ سبقته الأبحاث العلمية في هذا المجال فجاليليو يؤكد هذه التفرقة على أساس أن الصفات الأولية مثل العدد والشكل والحجم والحركة والوضع تعتبر صفات ملازمة للأشياء بحيث لا يمكن أن نفصلها عنها مهما فعلنا بينما جميع الصفات الأخرى وهي غالباً ما ترتبط بالإحساس تعتبر ثانوية لأنها تعتمد على الصفات الأولية وتكون بمثابة نتائج لها[٢].

ويعتبر بويل أهم من أوضح هذه التفرقة[٣] في كتابه (منشأ الأشكال والخصائص على مذهب الفلسفة الدارية)[٤] الذي نشره عام ١٦٦٦ وذهب فيه إلى أن الصفات الأولية للمادة موجودة فيها ولا بدّ وأن تظل كذلك مهما قسمناها إلى أجزاء صغيرة لأن التجربة

---

(١) Essay, B. II, ch. IIIV. sec. 1, P. 86.

(٢) Burtt, E. A; the Metaphysical foundations of Modern science, P. 84. (A doubly anchor book, N°. 41).

(٣) عرفت هذه التفرقة منذ العصور الوسطى وبخاصة في فلسفة البرت الأكبر إلا أنها كانت تستخدم بمعنى مغاير إلى حدٍ ما بل قبل ذلك أيضاً منذ أرسطو فالتفرقة تبعاً للشروح المدرسية كانت بين الصفات المحسوسة والتي كان يعدها أرسطو كيفيات أولية مثل البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة وبين بقية الصفات التي تعتمد في وجودها على تلك الكيفيات الأولية إلا أنها جميعاً سواء أولية أو ثانوية كانت في نظرهم موضوعية أي موجودة في الأشياء وليست ذاتية.

(٤) Theorigin of forms and qualities according to the corpuscular philosophy. (1666).

تظهر لنا أننا مهما قسمنا المادة إلى أجزاء أو دقـائق صغيرة فهـذه لا بدّ وأن يكون لها شكل وحجم شأنها شأن الأجسام الكبيرة[1].

ويستطرد قائلاً: «إن هذه الصفات الأولية كالشكل والحجم حين تؤثـر في أعضاء الإنسـان تؤدي إلى ما يعـرف بالصفـات الحسيـة تلك الصفـات التي غالبـاً ما نخـطىء فننسبها إلى الأجسـام نفسها إذ أننـا تعـودنا منـذ الطفـولة عـلى تصور ارتبـاط الصفات الحسيـة بـالأشيـاء الطبيعية ووجودها فيهـا بينها هـذا خطأ إذ ليس هنـاك شيء حقيقي في الأجسام سوى صفاتها الأولية فقط[2] كما ذهب هوبز كذلك في كتـابه التنين Le viathan[3] إلى إيضاح هـذه التفرقـة فقال إن هـذه الصفات الثانوية التي قد نعتقـد أنها موجـودة في الأشياء ليست كـذلك لأنـه لا يـوجد في الأشيـاء سـوى تلك الصفـات الحقيقيـة (أي الأوليـة) التي تحدث تلك الصفات الثانوية»[4].

٤ ـ ويسـير لوك في نفس الإتجـاه متأثـراً بجاليليـو وبويـل ـ فيرى ذاتية الصفات الثانوية وموضوعية الصفات الأولية إلا أنـه يزيـد الأمر إيضـاحاً حـين يذهب إلى أن الصفـات الثانـويـة ليست هي القـوة أو القـوي التي تحـدث في الإنسـان إحسـاسـه بهـذه الصفـة وعـلى ذلـك فـالموضـوعي هو القـوي لا الصفات الثـانويـة المحسـة. وعـلى ذلـك فالعلاقـة بين الـذات والموضـوع هي علاقـة تأثـير من الموضـوع بقواه

---

(١) Aaron, R. I, John Locke, P. 111.

(٢) المرجع السابق ص ١١٢.

(٣) اللوایاتان كما وردت في الإنجيل سفر أيوب إصحـاح ٤١ وهو وحش بحـري خيالي.

(٤) Burtt, E. A. the Metaphysical foundations of Modern science, b. 130.

وخصائصه المختلفة على الذات التي تكون بناء على هذا التأثير صوراً ذهنية وأفكاراً تناسب نوع هذا التأثير وقوته ومداه ولكن كيف يتم هذا التأثير؟.

يذهب لوك في بداية مقالته إلى أن «حواسنا التي تقابل موضوعات الحس توصل إلى العقل إدراكات حسية مختلفة عن الأشياء تبعاً لاختلاف الطرق التي أثرت بها هذه الموضوعات في أعضاء الحس»[1] على أساس أن الموجودات الطبيعية الموجودة في العالم تتركب من عدد كبير جداً من الجزئيات وهذه الجزئيات تؤثر في أعضاء حسنا بواسطة قذائف صغيرة تصطدم بأعضاء الحس ثم ينتقل هذا التأثير إلى المخ فتحدث الأفكار في العقل بناء على ذلك[2].

ولنحلل هذه العملية في ضوء ما ذهب إليه لوك بالنسبة لكيفية تكوين الأفكار.

١ - يبدأ لوك بالصفات الأولية قائلاً: «إننا إذا أدركنا هذه الصفات الأولية في الأشياء كإدراكات حسية منفصلة تقع تحت حواسنا فإنها ستؤدي إلى تكوين صور في الذهن»[3].

أما كيف يبدأ ذلك؟ فلا بدّ من وجود حركة معينة تقوم بها أعصابنا أو أرواحنا الحيوانية Animal Spirits تنقل هذه الإحساسات من أجزاء الجسم المتأثرة بالإحساسات إلى المخ أو مركز الإحساس

---

(١) Essay. BI. ch. I. sec. 3, P. 2.

(٢) Aaron, R I; John Locke, P. 97.

(٣) Essay, B. II. ch. VIII, sec 12, P. 86.

وهناك في المخ تحدث تلك الصور الذهنية أو الأفكار عن هذه الأشياء الحسية[1].

٢ ـ أما عن أفكارنا التي تتعلق بالصفات الثانوية فإنها تنتج بواسطة تأثير الأجزاء غير المحسوسة من الأشياء في حواسنا فهناك عدد كبير من الأجسام كل جسم منها بلغ من الدقة والصغر مبلغاً جعل من المتعذر إدراكه بحواسنا سواء في حجمه أو شكله أو حركته كما هو واضح في جزئيات الماء وذرات الهواء هذه الجزئيات بحركاتها وأشكالها وأحجامها تؤثر في مختلف أعضاء حسنا بحيث يمكن أن تحدث فينا إحساسات مختلفة عن ألوان وروائح الأشياء[2].

أما عن كيفية هذا التأثير وعن ما ماهية هذه القوة الموجودة في الأشياء والتي تجعلها تؤثر في حواسنا بحيث نشعر بإحساس معين دون الآخر سواء كان لوناً أو رائحة أو طعماً فهذا في نظر لوك من قدرة الله إذ ليس من المستحيل على الله أن يربط بين هذه الأفكار وهذه الحركات بالذات كما أنه ليس من المستحيل عليه أن يربط بين فكرة الألم التي نحس بها بحركة قطعة صغيرة من الحديد تنغرس في اللحم أو تغوص فيه[3] وعلى ذلك فما هو في فكرنا حلو أو أزرق أو ساخن

---

(١) فكرة الأرواح الحيوانية حسب هذا الاستعمال تشبه إلى حد كبير معنى فكرة الأرواح الحيوانية عند ديكارت فقد كان ديكارت يستخدم نفس هذه الفكرة من قبل بمعنى أنها جزئيات لطبقة رقيقة من الدم تتحرك مسرعة خلال الأعصاب فتوصل بين المخ الذي كان معروفاً عند بعض العرب مثل الجرجاني الذي ذكره في كتاب التعريفات عن كتاب ديكارت للدكتور عثمان أمين ص ١٩٦.

(٢) Essay, B. II ch. VIII sec. 13, P. 86.

(٣) Essay, B. II. ch. AIII, sec. 14, P. 86.

ليس أكثر من شكل معين أو حجم معين أو حركة خاصة لهذه الجزئيات غير المحسوسة في الأجسام نفسها[1].

فقد يظن البعض أن اللهب يتضمّن الحرارة والضوء وأن الثلج يتضمّن البياض والبرودة بحيث تكون البرودة والبياض في الثلج نفسه كما لو كانت هذه الأفكار في عقولنا مثل صور الأشياء حين تنعكس على المرآة إلا أن هذا ليس صحيحاً فالحرارة في حد ذاتها ليست موجودة فعلاً في النار بدليل أن النار نفسها لو وضعت بعيدة عن الجسم بمسافة معينة لن تحدث فينا سوى الدفء وكلما قربناها من الجسم أحسسنا بدرجات متفاوتة من السخونة والألم فكيف تكون فكرة الدفء المريحة موجودة في النار وكيف تكون في نفس الوقت فكرة الحرارة والألم موجودة في النار ذاتها[2].

وكذلك فكرة الحرارة أو الضوء التي نحصل عليها باللمس أو بالبصر من الشمس يعتقد البعض أنها صفات حقيقية موجودة فعلاً في الشمس كما لو كانت شيئاً أكثر من مجرد القوة ولكننا حين نناقش هذه الفكرة سنجد أنها خاطئة إلى حدٍ كبير ولنأخذ مثلاً لذلك قطعة من الشمع ونضعها تحت أشعة الشمس سنجد أنها تبدأ في الذوبان ويتحول لونها إلى الأبيض فهل معنى ذلك أن صفة البياض أو صفة الليونة اللتين حدثتا في قطعة الشمع موجودتان في الشمس؟ إننا يجب أن لا ننظر إليهما على أنهما كذلك بل على أساس أنهما مظاهر معينة حدثت في الشمع نتيجة لتأثير قوى مختلفة موجودة في الشمس والواقع أن هذه الصفات عن الحرارة والضوء والتي هي عبارة عن إدراكات

---

(١) Ibid, B. IIch. VIII, sec. 15, P. 87.

(٢) Ibid, B. II, ch. VIII. sec. 16, P. 88.

حسية والتي أحسست بها حين شعرت بالدفء والضوء ليست موجودة في الشمس وحالها في ذلك حال التغيرات التي حدثت في قطعة الشمع فهذه كلها ليست أكثر من قوى موجودة في الشمس يتوقف تأثيرها على الأحوال المختلفة التي تحدث في الصفات الأولية فيها مثل الشكل والحجم وحركة الأجزاء[1] ولكن يدلل لوك على أن الصفات الثانوية ليست شيئاً موضوعياً يقول: «إنه لو فرض واستطعنا أن نكتشف الصفات الأولية الموجودة في الشيء لزالت عنه في تلك اللحظة جميع صفاته الثانوية[2].

«فالإنسان حين يرى أمامه قطعة من الذهب سيدرك على الفور أن لها لوناً أصفر فإذا ما وضعناها تحت المجهر لكي يكبرها لنا مئات المرات فسنجد أن هذه الصفات الثانوية أي اللون الأصفر مثلاً قد اختفت وحل محلها أمام أعيننا نسيج رائع من جزئيات صغيرة ذات حجم معين وشكل خاص وكذلك الدم له لون خاص به هو اللون الأحمر وهذه الصفة الثانوية تظهر في الدم بالنسبة للعين المجردة فإذا ما وضعنا نقطة من هذا الدم تحت المجهر سنرى رقائق وكرات صغيرة تسبح في سائل شفاف وكذلك إذا ما وضعنا تحت المجهر شعر إنسان له لون معين فسنجد أن هذا اللون قد تغير واختفى»[3].

إلا أن التقسيم الذي قسم به لوك صفات الأشياء إلى أولية وثانوية قد أدى إلى إثارة سؤال على جانب كبير من الأهمية ألا وهو مدى مطابقة الفكرة الموجودة في الذهن للموضوعات الخارجية.

---

(1) Essay, BII, ch, VIII. sec, 2H, P. 90.

(2) Ibid, B', II. ch. XXIII, sec. 2, P. 213.

(3) المرجع السابق الموضع نفسه.

والتطابق بصفة عامة لا يعني سوى وجود التماثل بين أي شيئين بشكل يمكن للعقل إدراك العلاقة بينهما مباشرة ولتوضيح ذلك نفرض أن أمامي كلين Two wholes من نفس النوع بحيث أمكنني أن أقول إن الجزء (س) من الكلي (أ) يتطابق مع الجزء (ص) من الكلي (ب) والحكم في هذه الحالة يمكن أن يعني أن الجزء (س) يؤدي بالنسبة للتنظيم الداخلي للكلي (أ) نفس الوظيفة التي يقوم بها الجزء (ص) بالنسبة للكلي (ب) أو بمعنى آخر أن س: أ = ص: ب.

فإذا طبقنا هذه الموازنة بالنسبة لبقية أجزاء أو عناصر الكلّين فإنه يمكن التأكيد بأن أ، ب متطابقان أو أن أ، ب متشابهان أو بمعنى آخر أن كل جزء أو عنصر في أ يرتبط بعلاقة واحد بواحد One. One relation بالنسبة لكل جزء أو عنصر من ب[1] والمطابقة يمكن أن تكون بين عنصرين مختلفين أحدهما موضوعي والآخر عقلي[2] أي مطابقة الفكرة الموجودة في الذهن مع الموضوع الخارجي[3].

فإذا ما طبقنا هذه الفكرة على نظرية لوك في التفرقة بين الصفات الأساسية والثانوية نشأ هذا السؤال. هل تكون الفكرة البسيطة الموجودة في الذهن مطابقة تماماً للشيء بجميع صفاته وخصائصه الأولية والثانوية؟ أم لأي منهما تكون المطابقة مع الفكرة الذهنية الواقع إن فلسفة لوك لا تمثل الإتجاه الحسي الخالص كما ذكرت ذلك من قبل. ولهذا فهي ليست فلسفة تمثيلية Representationalism

---

(١) Harold H. Jouchim, the Nature of truth, P. 10 (London, 1939).

(٢) المرجع السابق ص ١٨.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢.

خالصة[1] وبالتالي فليست جميع الأفكار الموجودة في العقل صوراً أو نسخاً دقيقة لما هو موجود في الواقع.

وعلى ذلك فيمكن القول بأن الأفكار التي تشبه تماماً ما هو موجود في العالم الخارجي هي أفكارنا عن الصفات الأولية ـ وذلك لأن هذه الصفات موجودة في الجسم غير منفصلة عنه في أية حالة من حالاته[2] ولأن نماذج هذه الصفات الأولية موجودة بالفعل ومتحققة في الأجسام نفسها بمعنى أن جميع الأجسام تحتوي عليها أو تتضمنها بغض النظر عما يمكن أن تحتويه أو تتضمنه من قوى أخرى وأما بالنسبة لأفكارنا عن الصفات الثانوية فهي لا تطابق الواقع لأن الصفات الثانوية نفسها ليست موجودة ولا متحققة في الأشياء الطبيعية وكل ما يقابل هذه الأفكار هو مجرد قوى Powers فقط في الأشياء تحدث فينا هذه الإحساسات وهنا تبدأ المشكلة. إذ كيف أقارن بين فكرة في ذهني عن لون مثلاً في حين أن هذا اللون ليس له وجود فعلي في الشيء المدرك؟ وقد أدى هذا إلى قول لوك «بأن جميع أفكارنا البسيطة سواء أفكارنا عن الصفات الأولية أو الثانوية لا يمكن أن تكون مجرد أوهام أو خيالات بل هي نتائج طبيعية منظمة نتجت عن تأثير الأشياء الموجودة في الواقع على حواسنا وبالتالي على عقولنا فهي تحمل ضمناً هذا التطابق أو التماثل المطلوب وهذا التماثل أو التطابق الموجود بين أفكارنا البسيطة وبين حقيقة الأشياء كافٍ إلى حدٍ كبيرٍ لجعل معرفتنا بها معرفة حقيقية[3].

---

(1) Aaron, R. I; John Locke, P. 107.

(2) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 9, P. 85.

(3) Essay, BII, ch. IV, sec. 4, P.77.

«إلا أن فكرة المطابقة بين الصفات الأولية في كل جزء من أجزاء المادة لا تبدو واضحة تماماً وإن كان الإحساس قد يجدها في الأشياء طالما كان لها حجم معين يكفي لإدراكها»[1]. فيقول لوك: «خذ حبة من القمح واقسمها قسمين. تجد أن كل قسم ما زالت فيه صفات الصلابة والامتداد والشكل والحركة قسمها من جديد تجد أنها ما زالت تحتوي على نفس الصفات استمر في التقسيم حتى تصبح هذه الأجزاء غير منظورة أو لا يمكن إدراكها بالحواس Insensible فإنه لا بدّ Must أن يظل كل جزء منها متصفاً بنفس الصفات»[2] ويقول لوك صراحة إن هذه الإجزاء غير المحسوسة يجب Must أن تتضمن هذه الصفات الأولية.. ما مدى هذا الوجوب؟ ولماذا يجب أن تكون كذلك طالما لم تكن الحواس هي التي عرفتنا بوجود هذه الصفات في تلك الأجزاء غير المنظورة؟

لا نجد إجابة كافية ولا أيضاً ما يبرر ذلك في فلسفة لوك ولذا فهو لم يواجه المشكلة الخاصة بالبحث عن التماثل أو المطابقة بين أفكارنا عن الصفات الأولية ـ وبين الصفات الأولية ذاتها من حيث تحققها في الأشياء[3] والصفات الثانوية يستعملها لوك في فلسفته كي تدل على معنيين:

أولاً: بمعنى أنها القوة المتولدة عن الصفات الأولية في الشيء الواحد مثل إدراكي للون الذهب الأصفر.

---

(1) Ibid, B. II, ch. VIII. sec. 9, P. 85.

(2) المرجع السابق الموضع نفسه.

(3) Aaron, R. I; John Locke, P. 108.

ثانياً: بمعنى أنها القوة المتولدة عن الصفات الأولية في شيء معين بحيث لا يكون تأثيرها على الذات المدركة بل على الأشياء الأخرى بحيث يغير هذا التأثير من صفاتها الأولية. وبالتالي ستكون أفكارنا عن هذا الجسم المتغير مخالفة لأفكاري عنه قبل حدوث هذا التغير مثل تأثير النار على قطعة من الشمع حين تغير من صفاتها الأولية وتغير لونها إلى الأبيض وإدراكي لها بعد هذا التغير[1].

وقد أطلق لوك على النوع الأول اسم الصفات الثانوية المباشرة Im-mediately Secondary Qualities بينما أطلق على الأخرى اسم الصفات الثانوية غير المباشرة Moqriately Secondary Qualities وبعد أن انتهى لوك من عرضه للأفكار البسيطة والإعتبارات المتعلقة بها وخاصة الصفات الأولية والثانوية خصص فصلاً كاملاً وهو الحادي والعشرين من الكتاب الثاني من «مقالة في العقل البشري» للحديث عن أهم القوى أو القدرات العقلية التي تجعله قادراً على فهم مجموعة من القدرات أو القوى الإيجابية تمكنه من أن يفهم معنى الانطباعات الحسية ويكون عنها أفكاراً بسيطة بجانب وظيفة العقل السلبية المقصورة على تلقي أثر المعطيات الحسية الخارجية.

وقد ذكر لوك كما أوضحت من قبل أن أهم قدرتين عقليتين عند الإنسان هما الإدراك والإرادة وقد تكلم لوك وأفاض في الحديث عن الإدراك بينما لم يتعرض لفكرة الإرادة بالكثير ولذا فسأهتم بإبراز معنى الإدراك عنده.

وهو كما يذكر لوك أول وظيفة يقوم بها العقل بالنسبة لإحساساتنا

---

(١) Essay, B. II, ch. XIII, sec. 26, P. 91.

الإدراك الحسي:

وأفكارنا ولذا فهو بالتالي سيكون أول أبسط فكرة يمدنا بها التفكير[1] بل قد يسميه البعض باسم التفكير Thinking بالرغم من معنى التفكير في اللغة الإنجليزية يدل على نوع من فاعلية العقل بالنسبة لأفكاره (مثل إيجاد الروابط بين الأفكار) أي حينما يكون العقل نشيطاً وفعالاً وخاصة حينما يتأمل في أي شيء أو يتعقله بدرجة من الإنتباه الإرادي.

ولذا يفرق لوك بين التفكير والإدراك على أساس أن العقل في أغلب الأحيان يكون سلبياً في حالة الإدراك بمعنى أن ما يدركه الإنسان لا يمكن أن يدركه[2].

ولكن ما هو الإدراك الحسي إذن

لا يكاد لوك يجد له تعريفاً جامعاً مانعاً فيرد معناه إلى خبرة الإنسان الذاتية قائلاً: «إن كل إنسان لا بدّ وأن يعرف معناه حين يتأمل فيما يفعله أو يقوم به حين يرى أو يسمع أو يشعر بأي شيء ... إلخ أكثر من إية مناقشة أو تحليل أقوم أنا به لأن كل من يتأمل فيما يمرّ بعقله أو يتم في داخل فكره لا يمكنه ان يجهل معنى الإدراك أما من لا يتأمل أو يفكر في ذلك فلا يمكن أن تكون في ذهنه صورة واضحة عن معناه حتى لو استخدمنا في ذلك جميع ألفاظ اللغة المعروفة»[3]. والإدراك الحسي كعملية عقلية لا بدّ وأن تتوقف على العقل وبناء على ذلك فأية تغيرات تحدث في الجسم مهما كانت وأية

---

(١) Essay, B. II, ch. IX, sec. 1, P. 92.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

انطباعات حسية على أجزاء الجسم مهما تعددت إذا لم تصل إلى العقل لن يكون هناك عنها أي ادراك حسي[1] فالإنسان غالباً ما يلاحظ في نفسه أنه بينما يكون عقله مشغولاً بتأمل بعض الموضوعات ومتتبعاً بشغف كبير لبعض أفكاره عن هذه الموضوعات فإنه لا يلحظ وجود الأحداث المختلفة من حوله التي تؤثر في عضو السمع فيه والقادرة على إحداث انطباعات حسية مختلفة عن هذا الصوت لماذا لا نسمعها؟

مع أن هناك تأثيراً كافياً لإحداث الإثارة في عضو الحس (أي الأذن) إننا لم نسمعها لأن هذا التأثير أو التنبيه لم يصل إلى العقل وبالتالي فالعقل لم يلاحظه وبالتالي فليس هناك إدراك حسي بالرغم من وجود الحركة المعتادة في الأذن التي تؤدي في كل مرة يحدث فيها التنبيه إلى تكوين صورة ذهنية أو فكرة عن هذا الصوت.

وعلى ذلك فنقص الإحساس أو عدمه في هذه الحالة لا يرجع إلى عجز في أعضاء الحس أو إلى أن أذن الإنسان كان تأثرها أقل في تلك اللحظة عن الأوقات الأخرى التي كانت تسمع فيها إنما يرجع إلى أن عقل الإنسان لم يلتفت إليها أو يلحظها لذلك فهي لن تؤدي إلى تكوين أي انطباع في العقل ولا إلى أية فكرة لأنه لم يكن هناك إدراك حسي. ذلك كلما كان هناك إحساس أو إدراك حسي قامت بالتالي في عقل الإنسان وتكونت الأفكار التي تناسبه في العقل[2] أما القوة الثانية الموجودة في العقل والتي بناء عليها يمكن للإنسان أن يتقدم بخطى

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٢) Essay, B. II, ch. IX, scb. 4. P. 92.

واسعة في طريق المعرفة فهي ما يسميها لوك باسم قوة الاحتفاظ Retention أو الحفظ وهي تلك القوة القادرة على الاحتفاظ بالأفكار البسيطة التي تكونت في العقل.

والاحتفاظ بالأفكار يكون بطريقتين:

١ ـ إما بالاحتفاظ بالفكرة أو الإبقاء عليها في الذهن مدة معينة بدون أن تغيب عن عقل الإنسان أو تختفي عن انتباهه وهذا ما يسميه لوك بالتأمل Contemplation.

٢ ـ وإما بإحياء الصور الذهنية أو الأفكار مرة أخرى بعد أن تكون قد اختفت أو أصبحت بعيدة عن مخيلتنا أو نظرنا وهذا ما يسميه لوك بالتذكر[١].

ومعنى هذا أن أية فكرة إذا ما احتفظ بها العقل في مجال انتباهه استطاع أن يتأملها وبالتالي أن يكون منها ومن غيرها بعض الأفكار المركبة إلا أن العقل بطبيعته دائم التأثر بالإنطباعات الحسية المتتالية التي لا تنتظر طويلاً حتى ينتهي العقل من تأملاته لذلك نجد أن العقل دائماً بعد أن يدرك الفكرة يتركها جانباً ليدرك غيرها وهكذا والسؤال الآن: أين تذهب هذه الأفكار القديمة؟ هل أصبحت معدومة تماماً حين اختفت من مجال انتباهنا؟ يذكر لوك أنها تكون مختزنة في الذاكرة The Memory[٢] والتذكر نوعان بالنسبة للوك[٣].

---

(١) Ibid, B. II, ch. X, sec. 2, P. 97.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) Aaron, R. I; John Locke, P. 128.

(أ) إمـا استرجـاع إرادي للمدركـات أو الأفكار ـ وهـذا يتضمن المجهود الذي يبذله العقل في البحث عن الأفكار أو الألفاظ المنسية.

(د) وإما استرجاع لا إرادي ـ تظهر فيه الذكريات تلقائياً لأنها قد تظهر أحيـاناً من تلقـاء نفسها في عقـولنا فـترتفع من مستـوى الخلايـا المظلمة التي كانت توجـد فيها ـ إلى الـظهور في ضـوء النهار[١] إلا أن تفسير لوك للذاكرة بهذا المعنى جعل نظريتـه موضعـاً للنقد[٢] إذ كيف يتفق رأيه في الذاكرة بهذا المعنى مع رفضه لفطرية الأفكار بناء على أنه لا يمكن أن توجد في العقل أية فكرة ولا يكون العقل واعياً بها؟.

وهذا ما حدا بجون نـوريس John Norris إلى نقد لـوك[٣] بقولـه إنه إذا كان هنـاك أفكار مـوجودة في العقـل أي في الذاكـرة ولا يكون العقـل بها واعيـاً أو مدركـاً لوجـودها وهي التي كـان يسميها لـوك في المسودة «ب» (Draft B) بالأفكار الكامنة Tatent فلماذا لا تكون هنـاك أيضاً أفكار فطرية لم يكن العقل مدركاً لها أو واعياً بوجودها من قبل؟

إن القول بهذا لا يتعارض بالمرة مع الأفكار الفطريـة التي توجـد في العقل بالرغم من عدم إدراكه لها مع أن لوك اعترف بالأول وأنكـر ورفض المعرفة الفطرية[٤] وقد أدرك لوك هـذا النقد فنـراه في الطبعـة الثانية من «مقالته في العقل البشري» يضيف قولـه بأن أفكـارنا ليست أكثر من أدراكات واقعية أو حقيقية في العقل بحيث لا يمكن أن تكون

---

(١) Essay, B. IIX, sec 7, P. 99.

(٢) Aaron. R. I· John Locke, P. 129.

(٣) Norris, J, Reflections on Essay concerning Human understanding, sec. 4.

(٤) Aaron, R. I; John Locke, P. 129.

أي شيء على الإطلاق ما لم يكن هناك إدراك لها ولذا فوجود الأفكار في مخزن الذاكرة بهذا المعنى لا يدل إلا على أن العقل فيه من القوة ما يجعله قادراً في كثير من الحالات على إعادة إحياء الإدراكات Perceptions التي كانت فيه من قبل وبهذا المعنى يمكن تفسير كيفية وجود الأفكار في الذاكرة على أساس وجود قدرة في العقل تمكنه من إحياء هذه الإدراكات مرة ثانية. أما كيف يتم إعادة إحياء هذه الإدراكات فهذا ما يتطلب الشرح وهذا ما تركه لوك بلا شرح ولذا يمكن القول بأن تحليله لعملية التذكر كان تحليلاً ناقصاً[1].

وهناك بعض القوى العقلية التي يذكرها لوك والتي من شأنها أن تساعد الإنسان على التقدم بخطوات حثيثة في طريق المعرفة بجانب هاتين القدرتين السالفتي الذكر. مثل القدرة على التمييز والمقارنة والربط واستخدام الأسماء والتجريد فالتمييز Disscerning : وخاصة بين الأفكار المختلفة الموجودة في عقولنا يعتبر من أهم العمليات التي يقوم بها العقل والتي بدونها لا يمكن أن تتم المعرفة الإنسانية[2] لأنه بدون هذا التمييز لن يفرق عقل الطفل مثلاً بين هذه الأفكار وتلك بين ما هو أحمر وما هو أسود بين صوت الأب والأم بين طعم الدواء المر وبين الحلوى... إلخ وهو لن يفرق كذلك بين ما هو متشابه أو مختلف من بين أفكاره البسيطة.

والتمييز كذلك ضروري لنجاح كل العمليات العقلية كالتذكر والتخيل والإدراك والانتباه والتفكير ـ فالتفكير من حيث هو إدراك للعلاقات بين الأفكار المختلفة لاستنتاج أفكار أخرى جديدة لن يتم

---

(١) المرجع السابق ص ١٠١.

(٢) Essay, B. II, ch. XI. sec. I, P. 103.

إلا إذا استطاع الإنسان أن يميز بين أفكاره حتى يمكنه بالتالي أن يدرك العلاقات الموجودة بينها وهكذا بالنسبة لبقية العمليات الأخرى والمقارنة Comparing: وخاصة بين الأفكار المختلفة ضرورية لنجاح المعرفة الإنسانية إذ أن مقارنة الأفكار بعضها ببعض حسب مضمونها ودرجاتها أو من حيث الزمان والمكان أو أية ظروف أخرى محيطة بها[1] ضرورية جداً لفهم هذه الأفكار وبالتالي لنجاح المعرفة ـ وهذه العملية العقلية تعتمد اعتماداً مباشراً على التمييز لأن المقارنة لا يمكن أن تتم بين فكرة وأخرى إلا بناء على معرفة كل منهما على حدة وتمييزها عن الأخرى:

والتركيب Compounding: يعتبر كذلك من العمليات العقلية الهامة التي تساعد على تطوير المعرفة الإنسانية إذ بناء عليها يتم ربط مجموعة من الأفكار البسيطة التي تكونت في العقل عن طريق الإحساس أو التفكير وربطها معاً لتكوين أفكار أخرى مركبة[2] مثل أفكارنا المركبة عن الجواهر أو الأعراض أو العلاقات.

والتسمية Naming تعتبر كذلك من ضمن العمليات العقلية الهامة إذ أنه يساعد على تصنيف الأفكار وربطها برموز مختلفة هي ألفاظ اللغة وهذه العملية يمكننا ملاحظتها في الأطفال حين تبدأ الإحساسات المختلفة في تكوين بعض الأفكار البسيطة في أذهانهم وتثبت هذه الأفكار في ذاكرتهم بفعل التكرار فنجد أن الطفل يبدأ تدريجياً في تعلم استخدام الرموز وخاصة حين تتكون لديه المهارة أو القدرة على التحكم في أعضاء النطق لإخراج الأصوات بطريقة معينة

---

(١) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٢) Essay, B. II, ch. XI, sec. 6, P. 103.

فيستخدم الكلمات كرموز يرمز بها للأفكار الموجودة في ذهنه بحيث يمكنه أن يعبر بها عما يدور في ذهنه وأن يوصل هذا التعبير للآخرين(1). والتجريد Abstracting: فإذا كان استخدام الأسماء لا يعني إلا وضع رموز ترمز إلى الأفكار الموجودة في الذهن وإذا كانت هذه الأفكار قد تكونت في العقل بناء على الإحساس أو التفكير وحيث إن الجزئيات المحسوسة كثيرة ومتعددة وكذلك بالتالي أفكارنا عنها فإنه من الصعب أن نجد لكل فكرة بسيطة مفردة في ذهننا إسماً خاصاً بها لأن عدد الأسماء التي نتعلمها في هذه الحالة لن يقف عند حدّ ولتحاشي ذلك يلجأ إلى عملية التجريد وذلك بتجريد الأفكار الجزئية من كل ما يجعلها ترتبط بموضوع معين أو ترمز إلى شيء بالذات بحيث تصبح شاملة لأكثر من مدرك حسي في نفس الوقت وذلك عن طريق فصلها عن كل ما كانت ترمز إليه من الموضوعات الحسية وكل ما يرتبط أو يحيط بهذه الموضوعات من علاقات زمانية أو مكانية(2) ويضرب لذلك لوك مثلاً باللون الأبيض فيقول: «إن الإنسان قد يلحظ وجود اللون الأبيض في الثلج والطباشير وهو نفس اللون الذي رآه بالأمس في اللبن ولرؤيته للون الأبيض في الطباشير والثلج واللبن نجده يبدأ في تكوين فكرة جديدة لا هي خاصة باللبن ولا الثلج ولا الطباشير بل ممكن أن تنطبق على أي منهم وكذلك على كل ما يمكن أن يتصف بنفس الصفة وإنني أعطي هذه الصفة إسماً جديداً هو البياض Whiteness وهكذا بالنسبة لبقية الأفكار الأخرى المجردة»(3).

(1) Ibid, B II, ch. XI, sec. 8. P. 104.

(2) Essay, B. II, ch. XI, sec. 8, P. 105.

(3) المرجع السابق الموضع نفسه.

وبالرغم من أن نتيجة بعض هذه العمليات السابقة التي ذكرها لوك مثل التجريد والتركيب والمقارنة ـ بالرغم من أن نتيجتها ستكون أفكاراً حركية تقوم في الذهن إلا أن الذهن حين يلتفت إلى ما يجري بداخله أثناء قيامه بهذه العمليات يكون أفكاراً بسيطة عنها.

وسأوضح ذلك بالمثل الآتي

١ ـ حين يقوم العقل بربط بعض أفكاره البسيطة مثل اللون الأصفر والصلابة والذوبان في الماء الملكي . . . إلخ فإنه يكون نتيجة لهذا الربط أو التركيب فكرة مركبة عن الذهب.

٢ ـ وحين يقوم الذهن بملاحظة ما يجري فيه أثناء ربطه لهذه الأفكار بعضها مع البعض فإنه يكون فكرة بسيطة عن العملية العقلية التي يسميها بالتركيب Compounding وهكذا.

١٣ ـ المعرفة والوجود عند لوك:

يرى لوك أن معرفة الإنسان بالوجود تنقسم ثلاثة أقسام:

أولاً: المعرفة بالوجود الذاتي ـ وتكون بالحدس:

ثانياً: المعرفة بوجود الله ـ وتكون بالبرهان:

ثالثاً: المعرفة ببقية الأشياء الحسية الأخرى ـ وتكون بالحس.

(١) معرفة الذات:

يرى لوك أننا ندرك وجودنا ونعرفه معرفة واضحة يقينية بدرجة تجعلها لا تحتاج إل أي دليل أو برهان على صحتها لأنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أوضح لنا ولا أكثر ثبوتاً من وجودنا أنفسنا فأنا أفكر وأشعر باللذة والألم هل يمكن أن يكون إدراكي لأي من هذه المشاعر

أكثر وضوحاً أو ثبوتاً من إدراكي لوجودي!! وإذا كنت أشك في جميع الأشياء الأخرى فإن هذا الشك بعينه هو ما يجعلني أدرك وجودي وأستبعد شكي فيه.

وعلى ذلك فالخبرة تقنعنا وتؤكد لنا معرفتنا الحدسية بوجودنا وإدراكنا الداخلي الذي لا يخطىء يثبت لنا أننا موجودون وعلى ذلك فإننا نشعر بوجودنا في كل عملية من عمليات التعقل والإحساس والتفكير وهي تعتبر أعلى درجة من درجات اليقين في المعرفة[1].

ويبدو تأثر لوك في هذا المجال بكوجيتو ديكارت فديكارت حين قال «إنني أشك في كل شيء استطيع أن أشك فيه ما لم أجد مبرراً لعدم الشك فيه» اصطدم شعوره ووعيه بوجوده الذاتي فقال «إنني حين أشك فهذا يعني أنني أفكر وأنا حين أفكر أدرك مباشرة أنني موجود هذا هو الشيء الذي لا يمكن الشك فيه لأن الإنسان مهما حاول ذلك فهو لا بد واع بأنه يشك وبالتالي أنه يفكر وأنه موجود[2].

وهو نفس المعنى الذي ذهب إليه من قبل القديس أوغسطين في كتابه «مدينة الله» وخاصة في قوله إفحاماً للارتيابيين «أنه إذا أراد المرتاب أن يفكر فيلزم حتى لو أخطأ أن يكون موجوداً وأن يعرف أنه موجود لأنني إذا أخطأت فأنا موجود Si Falle roum»[3].

---

(١) Essay, B. IV, ch. IX, sec. 2, P. 527.

(٢) الدكتور عثمان أمين ديكارت ص ١٠١ طبعة ثانية ١٩٤٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٢.

(ب) المعرفة بوجود الله.

أما فيما يتعلق بإدراكنا لفكرة الله فمعرفتنا بها تعتبر معرفـة يقينية بالرغم من أنها لا ترجع إلى أية انطباعات فطرية في العقل.

لأن الله وهبنـا من القدرات العقليـة ما يؤهلنـا لإدراكه إدراكـاً واضحاً ما دام فينا إحساس وإدراك وعقل إذ كلها شـواهد فينـا تؤكد وجـوده وعلى ذلـك فليس لنا أن نشكـو جهلنا بـوجود الله طـالمـا كنـا مزودين بالوسائل التي تساعدنا على اكتشافه ومعرفته.[1].

ومع أن معرفتنا بوجود الله كما يذكر لـوك تعتبر معـرفة واضحـة يقينية إلا أنها ليست من نوع المعرفة الحدسية التي يـدرك بها الإنسـان ذاته ووجوده لأنها تتطلب جهداً عقلياً يبذله العقل في التفكير والانتباه كي يستـدل على وجـود الله من المعرفـة بالـوجود الـذاتي.. ولذا فهي معرفة برهانية تقوم على الاستدلال والبرهان.

وهو في هذا الطريق يقتفي أثر ديكارت خطوة خطوة فديكارت يبدأ بعد أن شك في كل شيء إلى إثبات الذات ثم إثبات وجود الله بناءً على وجود الذات ثم وجود العالم الخارجي أو الأشياء الأخرى وهذا ما فعله لوك فهو يبرهن على وجود الله بناء على وجود الذات.

برهان لوك على وجود الله: يبرهن لوك على وجود الله بقوله «إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء من لا شيء وما دمت أنا موجوداً - أي شيء له وجود حقيقي إذن لا بد أن يكون هناك من أوجدني وحيث إن العدم لا يمكنه أن ينتج أو يخلق أي وجود واقعي فإن البرهان الآتي سيكون

---

(١) Essay, B. IV, ch. X, sec. 1, P. 527.

بديهياً واضحاً صريحاً وهو أنه لا بد من وجود شيء منذ الأزل سابق في وجوده على وجود كل ما هو قديم وعلة له لأن كل ما هو ليس بأزلي له بداية وكل ما له بداية ينتج من غيره.

وعلى ذلك فالله قديم منذ الأزل بمعنى أنه بداية أو أساس لكل ما هو موجود وهو خالق هذا الوجود»[1].

ومن الواضح تأثر لوك في هذا الصدد بالمبدأ القديم الذي ينص على أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء من لا شيء exihil nihilo فالأشياء الموجودة لكي يكون وجودها وجوداً حقيقياً لا بد وأن تكون ناتجة عن شيء آخر لأنها لا يمكن أن توجد من العدم.

وهو في نفس الوقت يعتمد على مبدأ العلية الذي يجعل لكل شيء علة في وجوده وحيث إن الموجودات الطبيعية بما في ذلك الذات الإنسانية موجودة وجوداً حقيقياً فلا بد وأن تكون هناك علة لوجودها. هي العلة الفاعلة أي الله ويبدو أن تأثر لوك بأرسطو في هذا المجال كان كبيراً إذ أن أرسطو أثبت وجود الله عن طريق إثبات العلة المحركة الأولى التي تحرك ولا تتحرك على أساس أن كل محرك يتحرك وكل متحرك له محرك حتى نصل إلى المحرك الأول أي العلة الفاعلة الأولى التي تحرك ولا تتحرك وهي الله ويستطرد لوك بعد ذلك في بيان الصفات التي تتصف بها الذات الإلهية فيرى أن الله بالإضافة إلى أنه قديم كما ذكر وأنه مصدر أو أساس أول لكل ما هو موجود من حيث إنه علة وجوده وخالقه يقول «إن الله مصدر لكل قوة موجودة في هذا الوجود لأنه من الواضح أن أي شيء يبدأ في الوجود نتيجة

---

(١) Ihid, B. IV, ch. X sec. 3. P. 528.

لوجود شيء آخر سابق عليه فإنه سيعتمد في كل ما يتعلق بوجوده على ذلك الشيء الذي يعتبر سبباً أو أساساً لوجوده أي أن كل القوى الموجودة في ذلك الشيء تعتبر مستمدة أصلاً من الشيء الأول علة وجوده[1]. فإذا ما طبقنا ذلك على نطاق أوسع يشمل جميع الأشياء الموجودة في العالم والتي تعتمد في وجودها الأول على الله نستنتج من ذلك أن الله هو القوة الكبرى أو أكثر الموجودات جميعاً قوة لأنها جميعاً إنما تستمد قوتها منه»[2].

ويبدو أن لوك في هذا الموقف كان يعتمد اعتماداً كلياً على المبدأ القديم المستمد من فكرة العلية وهو أن العلة تلخص جميع الصفات الموجودة في المعلول وقد تزيد عليها فالله من حيث هو علة فاعلة لجميع الموجودات لا بد وأن تكون فيه جميع الصفات التي توجد في هذه الأشياء فإذا كان الإنسان فيه قوة على التفكير أو الحركة أو غير ذلك فإن هذه القوة لا بد وأن تكون موجودة في العلة الخالقة لهذا الإنسان لأن العلة التي تؤثر لا بد وأن يكون لها من الحقيقة والكمال مقدار ما لمعلولها على الأقل[3] وإذا كانت في النار قوة تؤدي إلى احتراق الخشب أو سيولة الشمع.. الخ فإن الله وهو علة كل شيء لا بد وأن تكون فيه هذه القوة موجودة فيه وبشكل أكبر وأعم مما هي موجودة في معلولاته و الله في فلسفة لوك أعلم الموجودات وأكثرهم معرفة[4].

---

(١) Essay, B. IV, ch. X. sec. 4, P. 528.

(٢) المرجع السابق الموضع نفسه.

(٣) تأملات ديكارت التأمل الثالث ص ١٢٦ ـ ترجمة دكتور عثمان أمين القاهرة ١٩٥١.

(٤) Essay, B. IV, ch. X. sec. 5, P. 529.

لأنه من المستحيل أن نتصور أن الأشياء الخالية من أية معرفة أو حكمة والعمياء عن أي إدراك أو فهم يمكنها أن تنتج أو أن تكون علة لموجودات عاقلة فاهمة واعية أي أن الطبيعة غير العاقلة لا يمكن أن تنتج العاقل وأن غير العارف يستحيل عليه أن ينتج العارف أو القابل للمعرفة إن ذلك مستحيل عقلياً بنفس درجة الاستحالة الرياضية التي نحس بها حين نتصور أن المثلث قد زاد في حجم زواياه بحيث أصبح مجموعها أكبر من زاويتين قائمتين وعلى ذلك فالموجود الأول لا بد وأن يكون عالماً بل لا بد أن يكون أكثر الأشياء علماً ومعرفة بصفة عامة[1].

والله موجود منذ الأزل وليس هناك صدق أوضح من هذا لأنه من المستحيل عقلاً وبداهة أن نتصور أن اللاوجود أو العدم المطلق أو الخلاء التام من أية صفة من صفات الوجودات قادر على إحداث هذه الموجودات الواقعية المحسوسة[2]،ولأن الموجود المادي البحت غير العارف أو غير القادر على التفكير لا يمكنه أن ينتج شيئاً على الإطلاق ولنتصور مثلاً لذلك قطعة ما من أية مادة سواء كانت كبيرة أو صغيرة ولنتصور أنها قديمة منذ الأزل وحيدة في هذا العالم ليس معها أي شيء آخر سنجدها لا يمكن أن تتغير بل ستبقى كما هي منذ القدم حتى النهاية شيئاً ميتاً لا حياة فيه ولا نشاط إنها يمكن أن تتغير لأنها لا يمكن أن تتحرك وذلك لأنها لا تستطيع أن تنتج الحركة بنفسها بل لا بد وأن تضاف إليها الحركة من الخارج وهي ما دامت كذلك غير قادرة على الحركة فلن تكون قادرة على إنتاج أي شيء آخر وعلى

---

(١) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٠.

ذلك فلا يمكن أن تكون المادة غير العاقلة هي التي انتجت الموجودات الأخرى العاقلة وما دام هناك نوعان فقط من الموجودات التي نعرفها حتى الآن. مادة غير عاقلة وموجودات عاقلة مفكرة فلا بد وأن يكون الموجود الواعي العاقل هو أساس هذا الموجود المادي غير العاقل أو غير الواعي[1].

ويلجأ لوك في مناقشته لهذه الفكرة إلى الفهم المشترك Common sense فيقول «أيها أقرب إلى التصديق أن يكون الفكر هو خالق المادة أم أن تكون المادة هي خالقة الفكر؟ من الطبيعي أن يكون الموجود العاقل هو الأسبق من ذلك الموجود غير العاقل»[2].

١٤ ـ الأحوال عند لوك:

منها الأحوال البسيطة الخاصة بتمثل واحد مثل:

المثلث: حال للامتداد.

الاعتراف بالفضل: حال للفضيلة.

القتل: حال للجريمة.

خمس: للعدد.

ومنها الأحوال المركبة: التي تجمع بين عدة أحوال بسيطة مثل الشكل واللون في الجمال.

ثم يصف لوك الأحوال البسيطة للمكان والديمومة والتتابع (التوالي) والعدد والكم والحركة والقوة والقدرة والفكر.. الخ.

---

(١) Essay, B. IV, ch. XI, sec. 10, P. 531.

(٢) المرجع السابق ـ الموضع نفسه.

فأحوال المكان هي التمثل الحسي للامتداد، المسافة الطول، العرض، الكثافة، الاتساع، وأحوال الزمان هي الساعات والأيام والسنون والأزمنة والخلود. أما التتابع أو التوالي فمعناه ظهور تمثلات جديدة عند اختفاء التمثلات السابقة[1]. ونحن ندرك الاعداد بالتأليف بين الوحدة البسيطة. وأحوال الكم، تنشأ من اجتماع فكرتي الامتداد والديمومة، والسرعة والبطء حالات للحركة.

بينما أحوال التفكير هي الإدراك، التذكر، اللذة والألم والحب والكراهية، الرغبة والفرح... الخ.

إننا حين ندرك الوقائع الخارجية نعتقد أن نفس العلل تحدث نفس المعلومات. ولكننا نعتقد أيضاً، أن هذه الوقائع أو الأشياء، يمكن أن تتغير، والقوة هي القدرة على إحداث هذاالتغير. والحركة الإنسانية تأكد قدرة الإنسان على إحداث هذا التغير وفقاً لقرار من العقل. وهي تلزم الإنسان وتسمح له بالسيطرة على أهوائه ورغباته، وتجنب الشر وفعل الخير.

١٥ ـ الجواهر:

إننا حين ندرك صفات الأشياء، نفترض وجود حامل لها، نطلق عليه اسم الجوهر. والحق أنه ليست لدينا فكرة واضحة ومتميزة عن الجوهر، لأننا لا ندرك إلا صفات الأشياء مثل الامتداد والشكل والحركة.. الخ.

كذلك، فنحن ننسب صفات النفس أو الروح إلى جواهر خاص متميز عن الجسد.

---

(١) الفكر الفلسفي د. نازلي اسماعيل حسين، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

وفكرة الجوهر الروحي ليست فكرة لا معقولة، خاصة وأن الله سبحانه، كان في قدرته أن يهب المادة القدرة على التفكير ـ وهكذا نستطيع أن نقول، إن لوك ظل وفياً للثنائية الديكارتية. ورفض الروحانية والحادية من أجل ما يحتويها من الغموض والإبهام.

١٦ ـ فكرة الله:

وقد نتساءل: هل لدينا تمثل للجوهر الإلهي؟ والجواب أنه لدينا تمثل عن العلم والقدرة والمشيئة اللامتناهية ولكن ليست لدينا فكرة واضحة عن الجوهر الإلهي أو أي جوهر آخر. لذا فالميتافيزيقا ممنوعة وغير مشروعة.

١٧ ـ فكرة العلية:

هذه الفكرة تدخل ضمن تصورات الإضافة. فمن الملاحظ أن عدداً كبيراً من الصفات وحتى من الجواهر، تظهر تحت تأثير صفات أو جواهر أخرى. ويسمي لوك «علة» ما ينتج عنه فكرة بسيطة أو مركبة، والمعلول ما ينتج عن العلة.

ويبدو أن لوك لا يهتم بتفسير آلية الفعل العلي. وهو يرد العلية إلى تداعي الأفكار الذي يحدث بطريقة أوتوماتيكية.

وهو يعتقد أن النفس قدرات سيكولوجية، يظل عملها سراً من الأسرار. لذلك فهو لا يطرح مشكلة الصلة بين النفس والجسم، لأنها في نظره تفوق قدرات العقل الإنساني ولوك الذي يعترف بوجود فكرة واضحة ومتميزة عن الجسد أو النفس، يسلم مع ذلك، بوجود الأرواح الحيوانية التي أشار إليها ديكارت والديكارتيون من بعده.

١٨ ـ اللغة:

تعتبر الكلمات التي تتألف منها اللغة، إشارات تشير إلى الأشياء، ولما كنا نصادف في الوجود عدداً كبيراً من الأشياء التي تتشابه، فنحن لا نستطيع أن نعطي لكل واحد منها اسماً خاصاً، لذا، فنحن نخضعها لتمثل واحد، مع استبعاد كل الخواص الفردية. وبواسطة عملية التجريد. فالوجود كلمة لا تشير إلى موضوع بعينه، ولكنها كلمة عامة تشير إلى الموجودات كلها، دون أن نعلم ماذا يجعل الشيء موجوداً، ومن أين تشتق صفاته وخواصه؟

إن الإنسان يعطي أهمية كبيرة للألفاظ. ومع ذلك، فالكلمات ليست صورة من الأشياء، وكثيراً ما تكون كاذبة. وكل الأخطاء تنشأ من الاستعمال الخاطىء للكلمات. وهو ما أشار إليه بيكون وهوبز من قبل.

والنتيجة التي نستخلصها من موقف لوك من اللغة، هي أن المعرفة الإنسانية محدودة، وأننا لا نبلغ اليقين إلا في حالات نادرة. وكل ما يطمح إليه الإنسان هو أن يحيا حياة طيبة، وأن يستخدم معرفته بالأشياء من أجل تحقيق أكبر قدر من الرفاهية.

١٩ ـ الفلسفة العملية عند لوك:

والآن ننتقل إلى جانب آخر من هذه الفلسفة وهو الجانب العملي. وجدير بالذكر، أن لوك قد ترك أثراً كبيراً في المجال السياسي والأخلاقي والديني. فنادى بحرية العقيدة، وهاجم بشدة الاضطهاد الديني في الرسائل (نشرت من ١٦٩٠ ـ ١٧٠٤).

واستطاع لوك أن يضع أصول التربية في المجتمع الانجليزي وبخاصة في الطبقة الارستقراطية.

وهو يتبع من آرائه، آراء علماء التربية في عصر النهضة. والذي يعنيه في التربية هو تقويم الأخلاق. أما العلم والمعرفة فيأتيان في الدرجة الثانية. وسلامة الأخلاق في نظره ترتبط بصحة الأبدان لذلك فهو ينصح بممارسة الرياضة البدنية.

ومن أهم تعاليمه الأخلاقية أن يتوخى الإنسان الحذر في حياته العملية، وأن يكيف سلوكه مع الواقع. والمثل الأعلى في نظره هو «الرجل المهذب» أو «الجنتلمان» ويعتقد لوك، أن التربية لا تكون عملاً جماعياً، إنما يجب أن يكون هناك مربون يتولون أمر تربية كل فرد على حدة، وخاصة أبناء الطبقة الأرستقراطية. ولقد عمل لوك نفسه مربياً لأبناء هذه الطبقة، لذلك فهو يتحدث هنا من واقع التجربة، لا من منطلق فكري خالص.

٢٠ ـ الأخلاق عند لوك:

يعتقد لوك أن الأخلاق هي أخلاق اللذة والألم. فالخير يجلب اللذة، والشر يحدث الألم ولكن العمل الخير يجب أن يتفق مع القانون. وهناك ثلاثة أنواع من القوانين: القانون الإلهي، والقانون المدني وقانون الرأي العام. أما القانون الإلهي فهو يأمرنا بإطاعة الأوامر الإلهية، والقانون المدني يحدد الأفعال التي تتفق مع القانون وتلك التي تخالفه. أما القانون الرأي العام، فهو من نظر لوك، يشير إلى الأفعال النافعة بالنسبة للإنسان والتي لا تختلف عادة مع القانون الإلهي وقانون الطبيعة.

٢١ ـ السياسة في نظر لوك:

وإذا انتقلنا إلى فلسفة لوك السياسية، لوجدنا أنه يختلف مع هوبز في وصفه للحالة الطبيعية الأولى. فإذا كان هوبز يرى أن

الإنســان كان يعيش في مـرحلة صراع مع الآخـرين، فإن لـوك عـلى العكس، كان يعتقد أن الإنسان في الحالة الطبيعية كان ينعم بالحريـة والسلام. ولقد تم إنشاء «الدولـة» من أجل الإبقـاء على هـذه الحالـة الطبيعية ومن أجل تحقيق المساواة بين الناس.

ويبدو أن الحرية لا تتحقق في الدولـة إلا بالفصـــل بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقانونية لذلك فهو يرفض نظام السلطة المطلقـة الذي كان ينادي به هوبز. وهو يجعل الثورة مشروعة إذا عجـز الملك عن الحفاظ على حرية شعبه. والثورة معناها أن يصبح الحاكم مـواطناً عادياً في الـدولة. وبفضـل لوك أصبـح قانـون الفصل بـين السلطات حقيقــة يتمسك بهـا القانـون المدني في الـدول المختلفة، حتى يـومنا هذا.

٢٢ ـ رأيه في الدين:

وفي رسالة له عن «المسيحية ديـانة معقـولة» أوضـح لوك أوجـه التشابه بين الدين الـطبيعي والدين المسيحي المنـزل. ولا يوجـد بينهما إلا فرق واحد هو الإيمان بالمسيح كـرسول إلهي وكمشروع أخـلاقي. وكـل مسيحي يجب أن يسلم بحقيقة السيـد المسيـح الـذي جـاء من أجل أن يخلص الإنسان من الخطيئة.

ولما كان من حق كل إنسان أن يمارس حريـة العقيدة الـدينية، فإن لوك يرى أنه من الحق أن نفصل بين الدين والسياسة. فالسيـاسة للجميع والدين خاص، لذلك فليس من سلطة الدولة أن تتدخـل في الشؤون الـدينية لـلأفراد. ولكن من نـاحية أخـرى، يجب أن تواجـه بشدة الدعوة إلى الإلحاد.

المصــادر العربية

١ ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة الحديثة.
٢ ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية.
٣ ـ فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد. دكتور محمد فتحي الشنيطي.
٤ ـ المعرفة ط ٢. دكتور محمد فتحي الشنيطي.
٥ ـ ديفيد هيوم. دكتور زكي نجيب محمود.
٦ ـ نحو فلسفة علمية، دكتور زكي نجيب محمود.
٧ ـ ديكارت، ط ٢. دكتور عثمان أمين.
٨ ـ أرسطو كتاب التفسير نقله إلى العربية دكتور أحمد فؤاد الأهواني.
٩ ـ محاورات أفلاطون. د. زكي نجيب محمود.
١٠ ـ حياة الفكر في العالم الجديد د. زكي نجيب محمود.
١١ ـ أسس الفلسفة دكتور توفيق الطويل.
١٢ ـ الفلسفة بنظرة علمية تأليف برتراند رسل ترجمها زكي نجيب محمود.
١٣ ـ الرسالة اللدنية للغزالي.
١٤ ـ أوزفيد كلبه ـ المدخل إلى الفلسفة ـ تعريب الدكتور أبو العلا عفيفي.

١٥ ـ نحو فلسفة علمية. دكتور عبد الرحمن بدوي.
١٦ ـ أفلاطون، ط ٢، دكتور عبد الرحمن بدوي.
١٧ ـ ربيع الفكر اليوناني، ط ٢، للدكتور عبد الرحمن بدوي.
١٨ ـ الفكر الفلسفي، د. نازلي اسماعيل حسين.

مـــراجع أجنـــبية

1 - Allan, D.J., The philosophy of Aristotle.
2 - Aristotale's Metaphysics.
3 - Ayer, A.J., The Revonlation philosophy.
4 - Bassor, A.H, David Hume.
5 - Burtt, E. A, The Metaphysical Foundations of Modern Science.
6 - Charles Hendel, Hume, Selections.
7 - Compleston, F.C, Aquinas.
8 - Curtis, S.J., A short History of Western philosophy in middle age.
9 - Harlod, H. Joachim, The Nature of truth.
10 - Hume, David, A Treatise of Human Nature.
11 - Jessop, T.E, Berkeley - Philosophical writings.
12 - John Burnet, Greek philosophy - Tales of plato.
13 - Moor, G.E, Some Main Problems of philosophy.
14 - Oremond A.T., Concepts of philosophy.
15 - REné Descartes, Discourse on Method.
16 - Ross, W.D., Aristotle.
17 - Russell, Bertrand, The Analysis of mind.
18 - Russell, B., The scientific Outlook.
19 - Saw, Ruth, Leibniz.
20 - Saxe Commins - (editors), speculative philosophers. New York, 1954.

فهـرس الكتــاب